حكايات الجدّ

قصص للناشئة والأطفال

عز الدين الدوماني

الكتاب: حكايات الجد

المؤلف: عز الدين الدوماني

رقم الإيداع: ١٩٧٤٣ / ٢٠٢٤
الترقيم الدولي: 978-977-493-822-1
الطبعة: الأولى / ٢٠٢٤

الناشر
شمس للنشر والإعلام
القاهرة - مصر
ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(٠٢)
www.shams-group.net
shams@shams-group.net

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يُسمح بطبع أو نشر أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هَذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

شمس
للنشر والإعلام

حكايات الجد

قصص للناشئة والأطفال

عز الدين الدوماني

إهـداء

إلى أحبتي أصحاب البسمة البريئة...

إلى كل طفل في بلدٍ منكوب؛ وما أكثرهم...

إلى كل من رسم ابتسامة على ثغر طفل حزين، أو مسح على رأس يتيم، أو خفَّف ألمًا عن طفل سقيم، أو أسهم في بناء شخصية طفل مستقيم...

أُهدي هذا العمل المتواضع

.

المؤلف

فهرس الحكايات

١. شهـد و بـوبـي ٩
٢. العصفور المُتمرد ١٩
٣. شجيرة العنب ٢٥
٤. مملكة ديـك ٣٣
٥. شتـلة نُهـى ٤٣
٦. هِـرّة نـورة ٥٩
٧. مـخـدوع اللـون ٦٥
٨. خـالـد و البحـر ٧٣
٩. اليتيـم وحيـد ٨١
١٠. الحاسوب الشخصي ٩١
١١. بـائعـة الخبـز ٩٧
١٢. الـسـائـق ١٠١
١٣.الـحـقـيـبـة ١٠٧
١٤. الـصـدفـة ١١٣
١٥. أخـاف عليـه ١٢١
١٦. الـهـديـة ١٢٩
١٧. الـتـؤامـان ١٣٧
١٨. وفـــاء ١٤٧
١٩. الـمـظـهـر ١٥٧
٢٠. أيـعـقـل؟ ١٦٩

(١)

شهـد و بـوبـي

بيت مكون من طابقين، يتربع مستريحًا على مساحة كبيرة من أرض المدينة، يحرسه سياج رخامي أبيض، فيه فتحات سمحت بتطفّل رؤوس الأغصان الشاردة إلى الخارج لترى المارَّة في الشارع ويرونها. نُقشت على رخام السياج زخارف زادت جماله، وحولته مع البيت إلى تحفة فنية متميّزة جمعت بين الأصالة والحداثة.

تجاور المنزل حديقة عامة كبيرة، صُممت لتكون أنموذجًا في تنسيق الحدائق، وزراعة نبات الزينة. جزء من السياج ملتصق بسور الحديقة التصاق حميم بحميم ما سهل لأغصان الأشجار في الحديقة أن تتشابك بأغصان أشجار البيت إلى درجة يصعُب فيها تحديد أصل الغصن لأي الأشجار ينتمي؛ فإذا هبَّت نسائم الهواء تحركت رؤوس الأغصان، وتمايلت كشخص يتغنج في مشيته، وكلما زادت قوة الهواء تجاوبت معها الأغصان، وبدأت تتراقص يُمنةً ويُسرة، علوًا وانخفاضًا بحركات تغري من يمر في الشارع أن ينظر إليها، ولتبعد عنه الملل تتابع رقصتها، بل أحيانًا تنخفض أرضًا بقوة حتى يكاد جزؤها العلوي يقبِّل رؤوس الأزهار المبتسمة في الأحواض التي صُممت بمحاذاة الأشجار لتشكلا معًا منظرًا نابضًا بالحياة... يكون تشابك الأغصان أكثر وضوحًا كلما هبَّت نسمات الهواء القوية، فترى الأغصان علوًا وانخفاضًا كأنها تتيه زهوًا وشموخًا.

لكن يا حسرتاه، متعة رؤية هذا المنظر تختفي بمجرد أن تصل رسالة إلى الأغصان تذكّرها بحاضنتها، فإذ بها تنحني أرضًا خوف الظنون

بحركة خاطفة تشبه حركة عاشق متيم يترقب لحظة غياب العيون حتى يقترب أكثر من عشيقته فما يكاد يهم بالحركة حتى يعود أدراجه سريعًا إذ تصله رسالة مباغتة تذكّره الالتزام بالمسموح حتى يتجنب العواقب الوخيمة غير المحسوبة إن اقترب أكثر.

لم تكن الأغصان وما تربَّع على صدرها من زهر يتيمة في تلبية رسالة الهواء، فقد شاركها ورد الأحواض بالحركة كأنه يتوق إلى تقبيل رؤوس الأغصان بتطاوله للأعلى، لكن هيهات، هيهات. فالمسافة بينه وبين رؤوس الأغصان تحول من دون رغبته تلك مع ذلك تبقى محاولاته لتحقيق رغبته جاذبة للمارَّة تغريهم بالوقوف والتأمل ولاسيما في فصل الربيع.

كم شخص أطال النظر متأملاً إبداع الخالق، مرددًا قوله تعالى: { فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } -سورة المؤمنون[14]-. ومنهم مَن تحفّز، وأخرج هاتفه النقال مقتنصًا "سلفي" ليوثّق ما شاهده من جمال خلاب. فإذا تحدّث عنه أظهر صورة المشهد؛ كونها أبلغ في إظهار حقيقته.

لم يقتصر تأثير جمال البيت الخارجي بمجاورته للحديقة على المارَّة، بل وصل إلى إحدى مجلات المدينة المحلية التي أظهرته على غلافها الخارجي ليصل إلى قُرائها؛ فشكل البيت الخارجي وتصميمه الغريب، وبناؤه على مساحة كبيرة في قلب المدينة، وعلى شارع رئيس، إضافة إلى مجاورته للحديقة الغانية بالأشجار والزهور، فضلاً على تصميم سياجه الرخامي غير المرتفع ولا المنخفض، والذي يسمح للعابرين برؤية سطحه المغطى بالأجر الأحمر جعله بيتًا متميّزًا من غيره، ولافتًا للنظر وبخاصة مع إشراق الشمس التي تطالعه مبتسمة فإذا ارتفعت انعكست أشعتها على الجدار كسراب جعلته مبعث الأسئلة:

- من المحظوظ الذي يسكن هذه التحفة الفنية؟

- كم هو سعيد هذا الرجل!

لكن الحقيقة كانت مغايرة تمامًا، فساكن البيت تاجر ثري من أكبر تُجار الذهب والجواهر في المنطقة، معروف للقاصي والداني على مستوى الدولة، فعلى الرغم من هذا الثراء الكبير تلمح في وجهه حزنًا بيّنًا أشد ما يكون إثر كل زيارة يقوم بها إلى أهله الذين يطلبونه بإلحاح أن يعالج نفسه وزوجه بعدما تأخر إنجابهما. كان التاجر يعدهم كل مرة، ثم يتجاهل... فإذا التقى بهم ثانيةً برَّر تلكؤه بالمشاغل وكثرة سفراته حتى ضجروا تسويفه، وهددوه بالمقاطعة إن لم يبدأ العلاج، أو يتزوج.

وازن الثري الأمور فوجد مقاطعتهم صعبة، وكبيرة كونه علمًا في عالم المال بالمدينة. ويخشى أن تشوب سيرته شائبة بمقاطعتهم فرضخ أخيرًا لمطلبهم، وبدأ رحلة علاج استمرت قرابة عامين، والتي نجحت، وتكللت أن حملت زوجته. الأمر الذي أسعد أهله، وغدوا منتظرين الوافد الجديد. فكلما مرَّ يوم على حمل الزوجة اقترب التاجر من تحقيق حلمه بأن يسمع من يناديه "بابا" أسوة بالآباء.

مع ذلك بدأ يصارع عاطفتين سلبتاه الهناءة خوف وفرح معًا، لكن مشيئة الله قضت أن تضع حدًا لمعاناته، حيث داهمت أعراض الوضع الزوجة، فحملها إلى مستشفى الولادة بالمدينة، لِتُدْخَلَ إلى الإسعاف... بدأ الثري يترقب خبرًا، فكلما مرَّت ممرضة قريبًا منه ظنها تحمل له البشرى، فإذا تابعت طريقها، واسى نفسه بأن المستشفى مكان عام، فيه كثير من الحوامل والممرضات. فأتى له معرفة ممرضة زوجته.

كانت كل دقيقة انتظار تمر تزيد معاناته حتى ابتسم له الحظ أخيرًا عندما اقتربت منه ممرضة، وهي تبتسم لتقول: (مبارك عليك يا سيدي لقد رزقت بنتًا).

لم تستطع رجلاه حمله من شدة الفرح فكاد يسقط أرضًا لولا أن تمسك بالجدار. سحب محفظته وأعطاها مبلغًا كبيرًا.

الخبر السار سرَّع دقات قلبه، وغدا همه الأول أن يدخل ليرى وليدته. أهي نسخة عن الصورة التي رسمها خياله لها أم لا؟

همَّ التاجر بالدخول إلى غرفة زوجته ليكحل عينيه برؤية الطفلة التي انتظرها كثيرًا، ففوجئ بيافطة كتب عليها: (لا يُسمح بزيارة من تضع قبل ست ساعات من الوضع).

سقط في يده، فحوقل غير مرة متجلدًا، وقفل راجعًا إلى بيته، محاولاً إشغال نفسه بالبحث عن اسم للوافدة الجديدة.. سرح خياله بعيدًا، وهو يستعرض بحر الأسماء، لكن اسمًا واحدًا استوقفه أكثر من غيره إذ استذكر أنه في صباه زار بصحبة أمه قريبة لهما في مدينة أخرى، حيث التقى بابنة جيرانهم اسمها "شهد" والتي أُعجب بجمالها واسمها. فلما غادر بيت قريبته شعر أن جُزءًا من قلبه بقي خلفه... وبمجرد أن بدأ يستعرض الأسماء داهمه اسمها على الرغم من لقائه اليتيم بها.

ترك استعراض الأسماء وشرع يفكّر كيف يسوقه لزوجته فارتأى أن يطرح معه اسمًا آخر يكون مُنفِّرًا لترفضه، وترجح كفة اسم "شهد".

مضت الساعات رغم وطأتها الثقيلة عليه. وحان ذهابه إلى المستشفى، ولما دخل غرفة زوجته حمد لله سلامتها، وبارك لها بالوافدة. ثم خرَّ ساجدًا لله. أخذ الطفلة بين يديه غير مصدق أنه أصبح أبًا، وأخذ يتأملها، ثم التفت إلى زوجته، وأرسل لها رسالة مفادها أن صبرهما أثمر ولله الحمد... ثم قال:

- ما الاسم الذي ستختارينه لها؟

كان سؤاله مفاجئًا، فاضطرت أن تبادله الإيثار فقالت:

- أنت أبوها. فاختر لها اسمًا جميلاً يليق بمكانتك.

تظاهر بأنه يفكر، ويفكر، ثم قال:

- ما رأيك باسم "وحيدة"؟

- لا، يا رجل، اسم "وحيدة" يبدو فيه مسحة تشاؤم، فكأننا لن ننجب.

فاجأها قائلاً:
- إذًا نسميها" شهد".

تأخرت إجابتها... علت دقات قلبه. فأردف كيلا يفوت الفرصة:
- أظنه اسمًا جميلاً، يليق بأمها العسل.

نظر إلى عينيها مستجديًا موافقتها، فسمعها تقول:
- على بركة الله. أحسنت يا أبا شهد الاختيار.

تنفس الصعداء، حيث انزاح عنه حرج الإجابة عن سر اختياره لهذين الاسمين من دون غيرهما. فبمجرد أن سمع قولها على بركة الله أسرع إلى إدارة المستشفى ليثبت اسم المولودة في الأوراق الرسمية، ثم خرّج زوجته وطفلتهما، وعاد بهما إلى البيت سعيدًا فحلمه سيصبح حقيقة عندما يسمع شهد تناديه: بابا، بابا.

تعلّق التاجر بابنته "شهد" تعلقًا شديدًا بتوالي الأيام إلى درجة أنه كان يتصل بزوجته يوميًا من مكتبه ليسمع مناغاة الطفلة. وكلما كبرت شهد زاد حبها في قلبه؛ لذلك حرص على تربيتها تربية خاصة، فأوكل تنشئتها إلى مربية مؤهلة تلازمها كل الوقت... ورأى فيها مصدر سعادته فكان يشعر إذا اقترب منها براحة نفسية لم يعشها من قبل. فتولّدت لديه رغبة في أن ينجب ثانية. حاول مرات بدون جدوى. فانصرف إلى شهد، ومنحها حُبًّا وحنانًا لا نظير لهما فعندما دخلت عامها الرابع عاملها كالكبار. فإذا عاد من عمله لاعبها، وراكضها. وتلمّس شعرها، ثم انحنى لتصعد على ظهره. فإن تلمست شعره استكان ولم يحرك ساكنًا سعيدًا بعملها، وليطرد الملل عنها يطلب منها أن تعتلي ظهره، ثم يخرج بها إلى حديقة المنزل يطوف بين الأشجار وأحواض الورد لتشم أريج الورد الفوّاح، فيقول:
- شهد حبيبتي، هل شممت رائحة الورد؟
- يا بنتي خذي نفسًا عميقًا حتى تملئي صدرك منه، وانظري بعيدًا حتى ترتاح عيناك برؤية منظر الحديقة الجميل.

بقي التاجر يعامل شهد هكذا حتى أنهت عامها الخامس. وقتئذٍ سمح للمربية أن تصطحبها إلى الحديقة المجاورة للبيت لتلعب بحريتها، ولتختلط بالأطفال عن قُرب استعدادًا لدخولها إلى المدرسة الابتدائية.

في إحدى زيارات شهد للحديقة. شاهدت صبية يسير خلفها جرو صغير. راقها منظره. فسارت خلف الجرو حتى كادت تخرج من الحديقة لولا أن باغتها صوت المربية:

- شهد، حبيبتي، قفي لا تخرجي من الباب.

بقيت شهد متسمرة في مكانها، وعيناها تلاحقان الصبية والجرو حتى تواريا بالبنيان. طلبت من المربية أن تعيدها إلى المنزل. انتظرت أباها أمام الباب، وبمجرد أن فتح الباب فاجأته على غير العادة. أخذها في حضنه قبّلها. تلّمس شعرها. لمح عينيها متسمرتين تنظران إلى وجهه، فاستشعر شيئًا ما، قال:

- حبيبتي شهد، كأنك تريدين شيئًا، ما رأيك يا عسل؟

هزت رأسها، ثم قالت:

- بابا، بالله عليك لا ترفض طلبي.

- أمرك عجيب يا شهد اليوم، هل سبق ورفضت لك طلبًا؟

سكتت مترددة ثم تشجعت، فقالت بصوت خافت غير معتاد:

- أتحبني يا بابا؟

- ماذا تقولين؟ نطقها بحدة وأردف، أتشكين في حبي؟!!

- لا، بل أحببت أن أتأكّد.

نظر إليها مستغربًا محتارًا من أمرها؛ فلم يسبق أن طرحت سؤالاً كهذا، وقال:

- يا عسولتي، يبدو أن طلبك غريب لا ترضاه أمك. قولي ما طلبك؟

- بابا، ذهبت اليوم أنا والمربية إلى الحديقة لألعب، فرأيت بنتًا أكبر مني، معها جرو يسير أمامها مرة وخلفها مرة أخرى. أحببت منظرهما،

وتمنيت أن يكون لي جرو لآخذه إلى الحديقة.

وضع التاجر يديه على رأسه، وابتسم قائلاً:

- أنت تأمرين يا حلوة، فبإذن الله يوم الجمعة نذهب إلى سوق الحيوانات لتختاري جروًا أجمل من جرو البنت. أرضيتِ الآن عن حبيبك بابا؟

- شكرًا، يا أحلى بابا.

سكتت قليلاً ثم قالت:

- بابا حبيبي أأبقى أنتظر إلى يوم الجمعة؟

ثم اقتربت منه أكثر، قبلته، وتلمست شعره:

- بالله عليك. ليكن غدًا. أرسل لي السائق حتى أذهب أنا والمربية لنشتري جروًا.

- حصل يا عسولتي، ماذا ستدفعين مقابل هذا التنازل؟

ضحكت، وتظاهرت بالهرب من أمامه. لحق بها، أمسكها. فعادت تقبل وجنتيه، وشكرته.

في اليوم التالي أرسل التاجر سائقه ليأخذ شهدًا ومربيتها إلى السوق لشراء الجرو. فلما وصلتاه طالعتا الحيوانات المعروضة فوقع اختيارها على جرو صغير أبيض اللون. اسمه "سبيسيان". تأكّدت المربية من بطاقته، ثم دفعت ثمنه. وعادتا إلى البيت سعيدتين.

في المنزل أخذت الخادمة الجرو، غسّلته، ثم نشفته. وأعادته إلى شهد التي احتضنته، وشرعت تتلمس فروه الناعم، لكنه هرب من بين يديها، فنادته: - سبيسيان، سبيسيان، لم تهرب مني؟ أنا أحببتك وستكون سعيدًا بيننا.

في هذه الأثناء لمحت أمها تنزل من الطابق العلوي، فلما اقتربت قالت:

- ألف مبارك عليك الجرو الصغير يا شهد.

- ربي يبارك بك يا ماما، ويبارك لأبي الذي لبّى طلبي.

- ما اسم جروك يا شهد؟

- اسمه سبيسيان.

قالت أمها:

- عسولتي، أليس اسم سبيسيان طويلا؟

بقي الجرو ينظر إليهما. لكن شهد قامت إليه، وأخذته بين يديها تتلمس شعره وقالت:

- "سبيسيان" ماما تقول إن اسمك طويل. ما رأيك أن أناديك بـ"بوبي"؟

نظر إليها شاخصًا. ففهمت مضمون رسالة عينيه. بـ"عدم الرضا"، فقالت:

- يبدو أن اسم بوبي لا يروقك، وتحب أن تحتفظ باسمك. هذا حقك علي. فأعاهدك ألا أناديك باسم بوبي إلا في المنزل. ما رأيك؟

ترك الجرو حضنها، وابتعد عنها بعض الشيء، ثم اتّكأ مقابلها على رجليه، وأبقى يديه منتصبتين ليسمع مناجاتها له وهي تقول:

- جروي الصغير، وعدتك أن يبقى اسمك الجديد مقصورًا على أسرتي فقط. وسأناديك باسمك سبيسيان أمام الزائرين وخارج المنزل؛ احترامًا لذاتك ورغبتك. وأعلم أن حبي لك دفعني لأختار اسما أقصر من اسم سبيسيان خوف أن يقلل طوله من حبنا لك.. أعرفت السبب يا صغيري؟... ألا ترغب في المجيء إلى حضني؟

بقي الجرو ينظر إلى وجهها فتخيلته يعاتبها قائلاً:

- شهودتي الحلوة.

انتفضت شهد بحدة، وعبست بوجهه مقطبة الحاجبين، وقالت:

- بوبي، لحظة، لحظة من أين جئت بهذا الاسم؟

- عليكِ نور يا شهد، أنت تنتفضين مجرد مناداتك باسم قريب جدًا من اسمك. بل تغيّرت ملامحك. انظري في المرآة لتري التغيير الكبير الحاصل على وجهك. فإن رضيت باسمك هذا أرضى باسمي الجديد. ما رأيك؟

تنهدت شهد. راجعت نفسها. تقدمت لتأخذه. إلا أنه هرب. لاحقته. أمسكت به، وقالت:

- إذا كان اسم شهودتي يسعدك فلا مانع أن تناديني به على أن أناديك بوبي في داخل المنزل فقط... هل اتفقنا؟

لم يهرب الجرو من بين يديها هذه المرة، وبقي ينظر إلى وجهها فوصلتها رسالته:

- نعم، رضيت أن تناديني باسمي الجديد داخل المنزل ما دامت شهودتي سعيدة.

مسحت على رأسه أكثر من مرة، ثم أعطته للخادمة حتى تطعمه. وأخذت تنتظر عودة أبيها لتشكره، ولتسمع رأيه باختيارها للجرو.

ذات يوم قصدت شهد الحديقة لتفسّح جروها، ولتحاكي الصبية التي شاهدتها من قبل برفقة المربية. فسارت في الحديقة، والجرو يسير خلفها. وبعد مسافة من سيرها نظرت خلفها فلم تجده فأخذت تنادي بصوت مرتفع:

- بوبي، بوبي، أين أنت؟

رجعت تبحث عنه فوجدته مشغولاً بإحدى المرميات في حوض للورد، فصرخت:

- بوبي، لماذا لا تلحق بي؟

لم يكترث بها بوبي، وبقي يعبث بالمرمية، متجاهلاً نداءها. غضبت منه، ثم تقدمت لتمسكه. لكنه هرب منها بعيدًا. لاحقته وهي تناديه.

وهو يهرب من أمامها، لتكتشف أخيرًا أنها نكثت بعهدها عندما نادته باسم غير اسمه الأساس أمام الناس في الحديقة...

وقفت قليلاً تتأمله. ووقف بدوره كأنه يعاتبها على فعلها... أومأت له برأسها وصاحت بصوت مرتفع: سبيسيان، سبيسيان. لم يتحرك من مكانه.. سارت إليه فهرب. تابعت وهي تنادي: "سبيس يان" حتى سمع معظم من في الحديقة صوتها وعرف. توقف وقتئذٍ عن المشي. توقفت أمامه تنهدت وقالت:

- سامحني، لن أتراجع عن عهد أقطعه على نفسي مستقبلاً إن لم يكن السبب مقنعًا.

ابتسم لها وابتسمت له، وتابعا الاستجمام في الحديقة فرحين بتوثيق العهد من جديد.

(٢)

العصفور المُتمرد

بدأ الجو يتغيَّر بمجرد أن حلَّ فصل الربيع، وأخذت البرودة تخف قليلا قليلاً، وكلما زحفت أيامه نحو فصل الصيف اعتدل الجو أكثر، فقلما تكون الرياح عاصفة عاتية كأواخر فصلي الخريف والشتاء. كما أن الأرض لبست رداءً أخضرَ جميلا وشته زهور مختلفة الألوان والأشكال، وتصدرت السماء شمس باسمة طيلة النهار أحيانًا وهي ترسل أشعتها نحو الأرض لكي تبعث في النفوس النشاط والحيوية من جديد.

أنَّى نظرت تجد حركةً ونشاطًا للمخلوقات مغايرة عن الأعوام السابقة؛ بسبب زحف الدفء مبكرا، فعم الجو هواء لطيف ممزوج ببرودة حنونة ليلاً يقبلها الناس، بل يحبونها؛ لأنها تنعشهم. فكلما زادت الشمس ضخ أشعتها الذهبية في الكون انحسرت البرودة، وتحركت الدماء الدافئة في العروق لتمسح كل خمول وكسل رانا عليها من قبل. فأصبحت النفوس رغبة من جديد في البناء لتستمر ديمومة الحياة...

هذه الأنواء الجديدة طال أثرها الطيور والتي سرّعت حركتها، فهبت تبني أعشاشها على أغصان الأشجار أو تحت السقوف الخشبية. فإذا نظرت إلى الأفق القريب من الأرض وجدت العصافير تحلق فوق رأسك. تعلو تارة، وتهوي أخرى لتلتقط قشة من خشاش الأرض علها تسهم في بناء عُشِّها الجديد ليكون مأوى لاحتضان زغاليلها خلال فترة تنشئتهم، وإعدادهم للحياة... فرغم تبدل طقس هذا العام، لكنه أحيانًا يفاجئ المخلوقات برياح في ثناياها برودة تذكّرهم بأيام فصل

الشتاء...

هذا التقلب الطفيف في الطقس جعل بعض المخلوقات خائفة فمع أي حركة بسيطة من الرياح تتغيّر الأنواء، وتجعل السماء غير صافية بل أحيانًا غاضبة مكفهرة الوجه، تغطي وجهها غيوم سوداء داكنة، وبخاصة إذا كانت الرياح مصحوبة برعد قاصف، أو برق لامع يخطف الأبصار، ويدفع السماء إلى سكب غيثها على الأرض؛ فيعيد إلى الأذهان أيام الشتاء الممطرة، ومشاهده المرعبة التي لم تقتصر على البشر. بل امتد أثر ها إلى العصافير فتراها متوجسة تفضل البقاء في أعشاشها بزغاليلها منتظرة أن تُمنح فرصة مواتية للطيران لكي تدرب زغاليلها.

على غصن شجرة هرمة تتّكئ على سور ضخم تآكل جزء منه كان يحمي إحدى العمارات الشامخة والتي بنيت في زمن العثمانيين، وقفت عصفورة قريبة من عشهاالذي يؤوي بضعة زغاليل، تنظر إلى الأفق، وهي تحبس أنفاسها خوف أن تمنعها الأنواء من الخروج لتدريب زغاليلها على الطيران، حتى يسعوا مستقبلاً إلى رزقهم بأنفسهم وليرفعوا عن عاتقها جُزءًا من مؤنتهم؛ لذلك تراها تلتفت إلى كل الاتجاهات، آملة أن تتحقق رغبتها في تحسن الأنواء لتخرجهم إلى التدريب. وبالفعل مجرد أن خفت الغيوم استبشرت خيرًا. وقالت في نفسها:

- سأنتظر حتى الزوال. فإن بقي الطقس على وضعه الحالي أخرجتهم إلى التدريب.

مضت سويعات من النهار، والحال على ما هو عليه. ففرحت كثيرًا؛ ووقفت على طرف العش. فلما رأتها الزغاليل اقتربت منها ليسمعوا كلامها، فقالت:

- أحبتي الحلوين، ما رأيكم في الخروج حتى تتدربوا على الطيران؟

بدا عليهم التردد، وتقاذفتهم عاطفة حُب الانطلاق في مكان رحب،

ومغادرة عش ضيق، وعاطفة خوف من عدم القدرة على الطيران ما يعني الهلاك.

أخذت العصفورة تبعث فيهم الحماسةوطلبت من أحدهم أن يخفق بجناحيه غير مرة فلمحت فيهما قوة. فقالت:

- زغلولي، أنت الآن- ما شاء الله- أقوى من ذي قبل، فلننطلق على بركة الله.

وبدأت تحوم حول العش حتى تجّرأ زغلولها، فخفق بجناحيه مرة بعد أخرى، ثم جرى خلفها. فتحرّكت الغيرة لدى إخوته الذين تشجعوا، ثم انطلقوا خلفه يسبحون في الفضاء. فلما رأت الأم زغاليلها يطوفون حولها سعدت أيما سعادة، وأخذت تطوف بدورها وسط دائرة طيرانهم تشجعهم على المزيد من الانطلاق ما دام الطقس مناسبًا. والفرصة متاحة فإذا خرج أحدهم خارج الدائرة، واقترب من الأرض اندفعت وراءه تخفق بجناحيها تنبهه لكي يعود إلى دائرة الطيران. وفي أحايين أخرى قد يستقوي أحدهم بجناحيه الخفّاقين إلى درجة الغرور فيبتعد عن أمه، والتي بسرعة تعيده، ثم تستدعي الآخرين لتسمعهم بعض تعليماتها، ثم ينفرط عقدهم فيبدؤون تطبيق تعليماتها تحت ناظريها. وهي تحوم وسطهم فرحة بما وصلوا إليه، فتناجي نفسها قائلة:

- زغاليلي، - ولله الحمد- كبروا، وغدوا قادرين على الطيران بما يمكّنهم مستقبلاً من جمع طعامهم بأنفسهم لعلَّي أرتاح من عبء إطعامهم. فلك الشكر ربي أن أقدرتني على تربيتهم وتعليمهم، كما أضرع إليك أن تكمّل فضلك ومنّك علي بأن توفقهم في حياتهم ليكونوا سعداء.

نظرت في الأفق فلفت نظرها من بعيد غيوم سوداء تزحف لتزيل الصفاء في السماء، إضافة إلى هبات الرياح التي بدأت تنشط أكثر، ورذاذ المطر الخفيف بدا واضحًا على ريشها. فحدقت في السماء غير

مرة فرأت الطقس يتغيّر بسرعة، فخافت على زغاليلها. فقررت العودة بهم إلى العش... نظرت إليهم فهالها أنهم يصارعون هبات الرياح بصدور شبه عارية إلا من الزغب، وبأجنحة ضعيفة غضة. فتحرك عطفها، وانبعث الخوف في نفسها فانطلقت إليهم مسرعة. جمعتهم حولها ثم قالت:

- أحبتي، بدأت غيوم السماء تتكاثر ما يوحي بأن الطقس سيكون سيئًا، فما أخشاه أن تزداد قوة الرياح، وغزارة المطر فلا نتمكن من العودة إلى عشنا. فالأسلم أن نعُد حالاً.

قال أحدهم:

- أماه، أنا جائع. فأرجوك أن تسمحي لي بالبقاء هنا قليلاً لعلي أجد ما أسكّت به جوعي. فإن زاد الطقس سوءا لحقت بكم. اطمئني.

- حبيبي، الوقت الآن غير مناسب؛ لأنه يقترب من الغروب. فأخشى أن يجتمع عليك سواد الليل، وسواد الغيوم فلا تهتدي إلى عشنا. وبخاصة إذا اشتدت الريح أكثر فلن يقوى جسمك الصغير على مجابهتها فتضطر إلى المبيت في مكان غير آمن.

- أماه، لا تكوني متشائمة كثيرًا، وتقللي من ثقتي بنفسي. فأنا كبرت، وأصبحت قادرًا على الطيران، كما أنني أعرف عشنا جيدًا. فدعيني بالله عليك أجرِّب.

- بُني، ما تقوله صحيح لو كنا في منتصف النهار. وكان الطقس عاديًا لا رياح فيه ولا مطر. فبرضا الله عليك يا كبدي ارجع معنا.

- أماه أنا جائع، ولم أعد أتحمل الجوع؛ فهو يقرصني ويؤلمني. فبالله عليكِ عودي وإخوتي حتى أكسب مزيدًا من الوقت قبل الغروب، أرجوك اسمحي لي.

- ولدي، حبيبي، أناشدك للمرة الأخيرة تعال معنا وهناك سأتركك

قريبًا من العش تبحث عن الطعام، فإن زاد الطقس سوءا عدت إلينا. فالعش في متناول يدك.

- أماه حبيبتي، بالله عليكِ دعيني أنطلق، واضرعي لله أن يوفقني في كسب طعامي لأعود إليكِ سالمًا. ولن أطيل الغيبة عنكم.

- ضناي، لم تكسر كلامي، وتخالف مشيئتي، وتصمم على رأيك المحفوف بالمخاطر؟ ألا تعلم بأنك تخاطر بروحك، وتتركني مهمومة مغمومة إلى أن تعود؟أعدك إذا وصلنا عشنا أن أسمح لك بأن تبحث عن طعامك بنفسك، فإن لم تشبع مما تجده فسأقدم لك ما ادخره من طعام في طرف العش؛ فبقاؤك هنا تهور بل انتحار. فما أخشاه- يا ولدي- أن تندم وقت لا ينفع الندم. فإن صممت ولا بد. فلا حول لي ولا قوة إلا بالله.

ثم توجهت إلى ربها ضارعة:

- ربي مولاي، يسّر لولدي، ونوّر طريقه، وأعده لي سالمًا غانمًا.

واتجهت إلى زغلولها:

- اِعلم بُني، أننا بحاجتك، ولا نستغني عنك. تأكَّد أن قلبي يكاد يتمزق ألمًا عليك فأنا أرى المكاره تحيق بك فقد قيل: (قلب المخلوق دليله).

– أماه، نور عيني، ألم تعلّمينا أن القدر مكتوب ولا مهرب منه فلم هذا الخوف إذًا؟ اسمحي لي أن أنطلق، وأوصيك بنفسك وإخوتي.

حلَّق عاليًا ثم اتجه عكس ما اتجهت أمه وإخوته. وبدأت المسكينة تذرف الدموع خوفا عليه، وتضرع لله أن يعود إليها سالمًا.

توجهت وأفراخها إلى العُش فلما وصلت الشجرة التي تحمل عشهم بقيت وأولادها قريبين من جذعها يبحثون عن طعامهم. وما هي إلا دقائق حتى تغيِّر الجو كُليًّا. فصعدت بهم إلى العش. لكنها مشغولة بولدها، فلم يهدأ لها بال طيلة سماعها هطول المطر. فكلما

سمعت الرياح تضرب الشجرة شعرت أن قلبها سقط من صدرها... بقيت المسكينة تنتظر وتنتظر معظم الليل عودته إلا أنه لم يعد... فالزغلول لما تركهم طار في الجو لمسافة ثم حطَّ أرضًا وأخذ يبحث عن طعام. لكن كثرة الأتربة التي يثيرها الهواء العاصف، إضافة إلى مداهمة ظلام الليل حالاً من دون تحقيق هدفه، فتمنى لو سمع نصيحة أمه. فحاول الرجوع إلى العش، لكن الرياح القوية لم تمكنه من الطيران فحط أرضًا، وتوارى في مكان علَّه يخفف عنه شدة البرد الذي بدأ يلسعه حتى أرغمه على النوم... ولما صحا حاول الطيران من جديد، لكن رجليه لم تقويا على دفعه للأعلى فخنس في مكانه ينتظر مصيره...

أمَّا أمه المسكينة فبمجرد أن سمح الضوء بالرؤية. وعلى الرغم من برودة الجو تركت عشها، وخرجت تبحث عنه فبعد تعب وبحث طال مدته لمحته فخفق قلبها فرحًا. اقتربت منه نظرت إليه فرأت دموعه تنهمر من عينيه كأنه يطلب منها أن تسامحه على مخالفة رأيها، وسلم روحه لبارئه، ونفق، إلا أنه ترك غصة لدى الأم التي لم تتوقع أن تفقد ولدها بتلك السرعة.

(٣)

شجيرة العنب

"جابر" فلاح نشيط يعمل وأبوه في بستانهما العامر بالأشجار المثمرة، والمنتصبة في صفوف متتالية بطريقة عجيبة مكنت الشمس من التسلل إلى معظمها. مَنْ ينظر إلى تنسيق الأشجار يلمح براعة لا نظير لها، ودقة غير متناهية، وحنكة في اختيار المكان. فيظن أن وراء هذا التنسيق العجيب يدًا ماهرة تتقن عملها، وكفاءة عالية، وأناة، وخبرة ولّدتها سنوات متعاقبة.

غلبت على أشجار البستان شجيرة العنب الزاحفة التي شكلت حصة الأسد، وحصد بيعها النسبة الأعلى في دخل الأسرة؛ لذلك نالت الشجيرة اهتماما كبيرًا ورعاية مستمرة من الأب وابنه انعكس على إنتاجها المتميز ما دفع بعض فلاحي القرية للمجيء إلى أبي جابر طالبين أغصانا من الشجيرة ليغرسوها في كرومهم، ظانين أن الوصول إلى إنتاج وافر سببه الشجيرة فحسب، ناسين أن وراء ذاك التميّز جهدًا كبيرًا، ورعاية مستمرة ممتدة من أبي جابر الذي يلازم بستانه معظم الوقت حتى سرت عنه مقولة بالقرية: (إذا أحببت لقاء أبي جابر تجده في مسجد القرية، أو البستان) فسر وفرة الإنتاج وتميّزه كامن في مواظبة أبي جابر على أن يبقى بستانه متصدرًا على مستوى المنطقة في غزارة الإنتاج ونضارته وسرعة نفاده في الأسواق.

كان أبو جابر يعامل أبناء قريته معاملة راقية، قوامها دماثة الخلق، وطيب النفس، وصدق القول. فكان ذكره حسنًا على الألسنة ما أغرى ولده جابرا إلى التخلق بخلقه، وسلوك طريقته بالعمل الزراعي، فلازمه

منذ صباه بعد أن ترك الدراسة. ومثّل ظله، يراقبه في كل شاردة وواردة يعملها داخل للبستان ما أكسبه مهارات زراعية تؤهله للنجاح. فكان حريصًا على السير وفق توجيهاته... فإذا أنجز عملاً ما طلب منه أن يقيّمه له، ويبدي ملحوظاته عليه ليتجنبها مستقبلاً؛ فكان طموحه أن يبقى بستانهم محافظًا على الترتيب الأول في مهرجانات بالمنطقة.

ذات يوم عاد أبو جابر مساءً من البستان تعبًا، فسلّم جسده للفراش لينال قسطًا من الراحة، آملاً أن يعود إليه نشاطه، لكنه لم يستطع النوم بسبب ألم أخذ يتسلل إليه. حاول تجاهله مرة بعد أخرى مظنة أنه عابر، لكنه فشل، وبقي يخاصم النوم حتى وقت متأخر من الليل حتى سرقته غفوة حتى الصباح، ولما استيقظ حاول كعادته الخروج إلى البستان فلم يقو فاضطر للعودة إلى الفراش، ضارعًا لله أن يشفيه ليعود إلى سابق عهده إلا أن الألم زاد أكثر عليه، وظهرت آثاره على وجهه، فعرض عليه جابر أن يحمله إلى المدينة للعلاج إلا أنه رفض، وقال:

- يا بُني، ألم بسيط سيزول. فقد تعودت عليه. أراك تأخرت عن عملك في البستان، حاول يا ولدي، إتمام ما بدأنا أمس، وستجدني مساءً -بإذن الله- أحسن.

صبّر الرجل نفسه، وأخذ بعض العلاجات البسيطة، لكن المرض قوي أكثر، وأيقن أنه مختلف هذه المرة عن سابقاتها. فبمجرد أن عاد جابر دعاه إليه، وقال له بصوت خفيض:

- ولدي، أنت وحيدي، فيبدو أن مرضي مختلف هذه المرة؛ لذلك أوصيك أن تلزم عبادتك، وترعى أمك وزوجك، وتهتم ببستانك الذي يمثل مصدر رزقكم شبه الوحيد، فلا تتشاغل عنه أبدًا. إن أعطيته أعطاك، وكلما زاد اهتمامك بأشجاره ردت جميلك بأفضل، ولا تنس أن تُخرج للفقراء في القرية حصتهم من ثمره ففيها تقوى، وبركة.

لم ينبس جابر بابنة شفة بل انهمرت دموعه على خديه، وأومأ برأسه موافقًا. ولما أنهى أبوه كلامه خرج مسرعًا إلى الدار، وأخذ ينتحب موقنًا أن أباه ضعف هذه المرة أمام المرض، وبدا مستسلمًا له... كم مرة مرض من قبل ولم يكن مستسلمًا كهذه!

وبالفعل بعد مرور أسبوعين على بدء مرضه العضال توفي الرجل. فتركت وفاته جرحًا غائرًا في قلب جابر؛ لأنه مثّل له الأب والصديق والمرشد والسند، إضافة إلى تحمّله مسؤولية الأسرة وتدبير شؤونها.

تقبَّل الشاب إرادة الله وقدره في خلقه مستذكرًا قوله تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ }. سورة الرحمن [27-26]. لله ما أعطى، ولله ما أخذ.

مضت أيام العزاء. ولما انفض المعزون من حول جابر اختلى إلى نفسه، وتذكّر مواقف أبيه فقرر أن يقتفي أثره ونهجه، وينفذ وصيته كاملة. ففكر برسم خريطة طريق تمكنه من رفع مستوى دخله السنوي فلم يجد أفضل من أن يستغل كل جزء من أرض البستان مهما صغر حجمها، فارتأى أن يبدأ خطته بغرس شجر الحور حول البستان جاعلاً منه سياجًا آخر يخفف من تأثير العواصف على حمل الأشجار، إضافة إلى ثمنه عند بيعه. ثم يزرع الأماكن الفارغة بالخضراوات التي يحتاجها بيته صيفًا وشتاءً. ولإنجاح خطته لازم بستانه معظم النهار. لكن حرارة الصيف المرتفعة تضطره إلى أن يعود إلى بيته وقت القيلولة ما يضيّع جزءًا من وقته بالذهاب والإياب.

فكَّر بحل يوفر وقته وجهده فارتأى أن يبنى غرفة بسيطة في طرف البستان لا يصلح للزراعة، ثم يربطها بالشارع الرئيس عن طريق ممر أقامه بين شجيرات العنب. فاضطر إلى نزع بعضها. ولما وصل"أم شجيرات العنب" وعزم على نزعها تذكّر وصية أبيه.. أينزعها كغيرها أم يكتفي بتوجيه أغصانها إلى الجهة الأخرى؟

أطرق لحظة، فشفع لها عطاؤها السخي، فجثا على ركبتيه يناجيها:

- أُم شجيراتي، أنا أحبك كثيرًا. انظري فيما حولك. ماذا فعلت بجاراتك؟ لقد نزعتهم من أصولهم. أما أنت فلا أقوى على فعله معك؛ لأنك ذات مكانة كبيرة لدى أسرتي. أرجوك، ثم أرجوك إذا أمسكتُ جذعك لأغيّر مسار أغصانك فلا تعاندي، بل كوني لينة مطواعة حتى أنجز مهمتي بسرعة من دون أن أكسر جذعك. فنخسر كلانا.

عاشت الشجيرة لحظات قاسية تفكر بمقولة جابر حتى داهمتها معاناة ذات شقين، أحلاهما مُر. إن هي طاوعته تغيّر شكلها، وغدت أضحوكة لمن يراها. وإن هي قاومته كُسر جذعها عندئذ سينزعها من أصولها؛ فقررت مجاراته أولاً، لكن أوصلت له رسالتها ريثما تدبر أمرها لتعيد اعتبارها فقالت:

- يا صاحبي، يا من تناديني بأم الشجيرات، أيُكافأ من يُعطي بسخاء أم يُعاقب؟ يا حسرتاه عليّ!ستجعلني خلقًا آخر يغاير الطبيعة بل أضحوكة لزوار البستان، ولمن يمر عبر الشارع العام. فإن التقط عابر الشارع صورتي، ونشرها عبر وسائل الاتصال رآني بشر كثيرون. فربما دفعت صورتي أحد الفضوليين للمجيء إلى البستان ليراني عن قرب. فإن كان صحفيًا كتب مقالاً عن شكلي المشوه. وإن كان شاعرا قرض قصيدة عن (شجيرة أعجوبة). أطرقت لحظات. داهمها الألم، والحسرة، وحب الذات. فتحرك لديها التحدي، وارتأت أن تنفذ خطتها على مراحل حتى يتقبل جابر شكلها الجديد.

ولما بدأ جابر يغّير مسار الأغصان استسلمت. وليضمن نجاح خطته ربط كل غصن منها بحبل رفيع وشده إلى وتد ثُبّت أرضًا. كانت تكظم غيظها على مضض متصبرة، وتقول بنفسها: اِفعل ما شئت، أنا سأفعل ما يحلو لي مستقبلاً سأحول أكثر عصارتي إلى أغصاني القريبة من الممر حتى تنمو بسرعة لتخفف من منظري المشوه. أمّا بقية

الأغصان سأمنحها باقي العصارة ليقل نموها. وفي مرحلة لاحقة أمنعها العصارة حتى لا تثمر. فإذا قارنت بين جزأي أغصاني ثارت حفيظتك على البخيلة ونزعتها. فعلك هذا - إن حصل- يسعدني، ويحسّن شكلي نسبيا، ويحفظ حياتي بألّا تقدم على اجتثاثي.

تنفست الصعداء,ثم هزت أطرافها فرحًا، وتابعت:

سأنتظر حتى تعود دورة الحيوية مجددًا. وبمجرد أن استشعرت تدفق العصارة في عروقها أقوى من ذي قبل حجبت أكثرها عن الأغصان المربوطة، ودفعت أكثرها إلى الأخرى حتى تنمو. واظبت عملها يوميًا حتى جاء يوم حمل لها البشرى، حيث لاحظت رؤوس أغصانها المستهدفة أكثر نموها، وبدأت تزحف إلى الممر. فزادت ثقتها بنفسها ودفعت لأغصانها مزيدًا من عصارتها ما انعكس نضارة على أوراقها جذبت جابرًا، واستوقفته يتأمل الفرق بين جزأي الأغصان حتى ساورته الظنون. فجثا يناجيها:

- أُم شجيراتي، ما الذي غيَّر أحوالك؟ إنني مذهول مما أرى فجزء من أغصانك ينمو نشطًا، وجزء آخر استسلم للخمول كأنه ما زال يعيش في ثنايا فصل الخريف... بالله عليك هل أصابك من مرض؟ أخبريني حتى آتي بالطبيب. فأنت أغلى شجيرة عندي. ماذا أقول لزوجتي في البيت التي لا تقبل إلا ورقك عند طبخها ورق العنب؟ فإن أخذت ورقة عنب من شجيرة غيرك اعترضت، وقالت: هذا الورقة ليست من شجيرتنا السخية. فإن أنا حققت رغبتها فلن أبقي عليك ورقًا يغطي ثمارك. فلم تفعلين هذا معي؟عاملتك بخصوصية من دون شجيرات الممر، حافظت عليك، ولم أنزع أغصانك. هل جزائي هو الحرمان؟أتسمحين أن آتي بطبيب ليكشف عليك؟

في اليوم التالي اصطحب جابر طبيبًا ليعالجها فلما تلمس الطبيب جذعها وأغصانها ثم حفر حول جذورها فلم يعثر على أي علامة تدل

على المرض ذهل وتعجب لحالها ثم اعتذر لجابر وغادر البستان.

جلس جابر قريبًا منها يناجيها، مغلفًا كلامه بنبرة تهديد ووعيد فقال:

- سأمنحك أيامًا معدودات، فإن تحسن نمو أغصانك فبها ونعمت وإلا أزلتها أول الموسم. وسأضع لك سمادًا خاصًّا، وأرشّك بمبيدات قتل الحشرات. فإن بقيت أغصانك متعثرة، فأنا مضطر إلى نزعها عنك، راجيًا التماس العُذر منك لي.

كلامه أسعد الشجيرة أيما سعادة! ففيه يتحقق جزء من خطتها.

وفي اليوم التالي بدأ عمله سقاها، ونثر السماد حول جذورها، ثم رشها بالمبيد الذي وصفه الطبيب، منتظرًا نمو أغصانها، وتحسن حالها. فكلما عبر الممر في ذهابه وإيابه نظر إليها، ويده على قلبه خوف أن يقع منه المحذور بفشل خطته.. كم منَّى نفسه بأن يرى بارقة أمل توحي بتحسن الأغصان حتى لا ينفذ وعيده.

أمضى جابر أسبوعين على هذه الحال، وهو يبالغ في خدمة الشجيرة، لكنه لم يلمس أي تحسن على نمو أغصانها، فأيقن أن لا فائدة منها، فنزعها، ثم ألقاها في زاوية البستان حتى تيبس لتكون وقودًا.

تنفست الشجيرة الصعداء، وهزت أغصانها فرحًا بنجاح جزء من خطتها، وقالت:

- سأواصل تحديك يا جابر لعلي أحقق الجزء الأخير من إصلاح شكلي الذي شوهته بفعلك الغريب، وأعدك بألّا أقصّر في سخائي وكرمي رغم إيلامك لي. فخالقي أمرني العطاء ما دمت قادرة عليه. ثم توجهت إلى الأغصان الفرعية المتبقية بالقول:

- أولادي، أحبتي، سأدفع إليكم مزيدًا من عصارتي لتكونوا قادرين على تجاوز الحاجز والوصول إلى الممر، فعليكم يا أبنائي، أن تنمو بسرعة، ولا تحطوا رحالكم إلا في قلب الممر حتى يهنأ عيشي، وتقر عيني، ولن

أبخل عليكم... أبنائي، أروني منكم خيرًا، حتى نثبّت وجودنا، فالحياة للقوي لا الضعيف. بوركتم من بررة رفعتم رأسي شامخًا بسخائكم. حاولوا إغراء السيد جابر بعطائكم حتى تغطوا تمردكم عليه، وكسركم كلامه. سأدفع إليكم مزيدًا من عصارتي حتى تقووا على متابعة الزحف للممر.

وبالفعل تمكنت الأغصان خلال فترة زمنية من الوصول للحاجز الترابي الذي أحاط بالممر. تجاهل جابر امتداد الأغصان على جزء من الممر، لكن الشجيرة الداهية تابعت تدبيرها محاولة إغراء الرجل، فطلبت من أغصانها أن تثمر بحدها الأعلى لعلها ترضي البستاني ليعود إلى سابق عهده معها، وليبقيها على شكلها الجديد.

لكن جابر دبَّر لها أمرًا، فكلما مرَّ قريبًا منها تأمّل شكلها الجديد، وفي نفسه تدبير لم يخطر لها. إلا أنهااستمرت تحث أغصانها على العطاء طمعًا في كسب رضا جابر عله يعيد لها اعتبارها الأولي، ولم تعلم أنه كشف مخططها منذ زيارة الطبيب الأولى. فقرر قبول تحديها؛ ولكي يوارى عن خطته تركها حتى نضجت ثمارها كلها. ثم قطفها على مراحل ولما انتهى الموسم.

بدأ ينفَّذ خطته بأن عكس توجه الأغصان الجديدة، كما فعل من قبل، ثم ربطها لتثبت في مكانها... هذا الفعل من جابر أفقد الشجيرة صوابها وتوازنها، وسقط في يدها، فبدأت تفكر بحل لهذه المعضلة التي بعثت ألما شديدا في نفسها، وتسلل الحزن والحسرة إليها، وكانا يزيدان يومًا بعد آخر حتى أصابتها يد الكآبة والانطواء. فقل امتصاصها للغذاء ما انعكس على أغصانها وأوراقها حتى بدت كأنها حطام عُلق بالأرض.

لم يرق البستاني حالها، فجاء بالطبيب ليكشف عليها. فوصف لها دواءً. جلبه جابر، وبدأ يعالجها، لكن من دون جدوى. فأيقن أخيرًا

أنها لن تنفعه ما دامت على هذه الحال. فانتزعها من أصولها مرغمًا ثم رماها في زاوية الكرم كغيرها من المرميات، وهو حزين على مآلها الأخير، مستذكرا عطاءها من قبل، وتفردها من دون بقية شجيرات البستان. فتحرك الوفاء في نفسه، فأخذ غصنًا منها، ثم غرسه في الجهة المقابلة لمكانها الأول حتى تنمو أغصانه بعيدة عن الممر حتى لا يتكرر حادث الأم التي جنت على نفسها بعنادها فتذكر: (جنت على نفسها براقش).

بقيت الشجيرة مرمية في زاوية البستان حتى يبست ثم حملها جابر إلى البيت، وفي فصل الشتاء ألقماها المدفأة التي وجدت فيها لقمة لذيذة... هذا المصير من يمنع العطاء وهو قادر عليه.

كلما ذهب جابر إلى البستان تذكر عطاءها السخي، وتمنى لو طالت رحلتها أكثر. فتراه يقف عند غصنها النامي يحادثه عن مناقب أمه كأنه شخص يسمع كلامه، فيطلب منه أن يكون بارًّا بها حتى تنطبق عليه مقولة:(إنه خير خلف لخير سلف).

من هنا نعلم أن الشجيرة على الرغم من مصيرها المأساوي حافظت على مكانتها وحجزت حيزًا بذهن جابر فبقيت خالدة بعد مماتها بسبب عطائها السخي في حياتها.

فمن يعط بسخاء لا ينتظر مقابلاً من أحد، لكن فعله العظيم يخلده ولو بعد رحيله. فكيف إن كان للفقيد امتداد وجود كما حصل للشجيرة، والتي نما غصنها وأثمر بسخاء كأمه، ما خفَّف عن جابر وطأة فراق الأم وكافأه بأن منحه لقب أمه(أم الشجيرات) على الرغم من صغر سنه...

فهل من معتبر؟

(٤)

مملكة ديـك

اعتاد وجهاء قرية "أم العطايا" أن يجتمعوا مرةً أسبوعيًا على الأقل في إحدى مضافات القرية لمناقشة كل مستجد على ساحة قريتهم. سواء أكان المستجد اجتماعيًا أم غير اجتماعي... لكن لقاءاتهم هذا الشتاء كثرت؛ بسبب عاصفة هوجاء ضربت المنطقة، وحملت معها بردًا قارصًا مصحوبًا بهواء بارد، ومطر غزير شبه متواصل تسبب في حبس الناس في بيوتهم، والحيوانات في الحظائر.

في لقاء الوجهاء الأخير بمضافة سعد تبادلوا ما سمعوه من وسائل الإعلام عن العاصفة. فنقل أحدهم قول مذيع النشرة الجوية صباحًا: (المنخفض الجوي الذي يضرب المنطقة الجنوبية الغربية قد يستمر بضعة أيام أخرى، وبقوة أشد مما هو عليه). ثم تساءل قائلاً:

- ماذا نفعل يا إخوة حتى نتجنب أضرار هذا المنخفض؟

أضاف وجيه آخر:

-سمعتهم يقولون: (إن سبب العاصفة منخفض جوي بارد جاء من بلاد بعيدة على غير المألوف في هذه الأيام).

قاطعه وجيه ثالث محذرًا:

- تخيلوا يا جماعة الخير، أن ثلجًا صاحب الموجة، وحال من دون إخراج الحيوانات إلى المراعي. ما مصير مخزون العلف المتبقي، من أين نعوضه؟

ردَّ سعد المضيف:

- بل، قُل يا صاحبي: من أين سنأتي بثمن البديل الذي يغطي بقية أيام الشتاء؟

عدّل أكبرهم سنًا جلسته، وقال:

- إخوتي، من فضلكم اسمعوني. لِم كل هذا التشاؤم والقنوط؟ أنسيتم أن الغيب لا يعلمه إلا الله؟ فلنحسن ظننا بالله. هو أتى بالعاصفة، وهو قادر على إيقافها، وإتاحة سُبل الخروج منها. كم عاصفة وقعت من قبل!

هذا الكلام المريح، هدّأ روع سعد، فاطمأنت نفسه. كأنه يسمعه للوهلة الأولى. فقال:

- أحسنت، أبا خالد، نطقت- والله بالحق- الغيب لا يعلمه إلا الله. فلِم نحمل أنفسنا همَّ غد ما دمنا توكلنا عليه، وسلمناه أمرنا؟ فلنبعد القنوط عن ساحتنا، فرحمة الله وسعت كل شيء، وسيجعل بعد العُسر يُسرًا.

- يا وجوه الخير، أنا أقترح أن نلتقي مرتين أسبوعيًا هذه الفترة حتى نتبادل الأفكار لعلنا نجد طرقا تخفف وطأة العاصفة عن الناس، وليستقص كل منا أحوال جيرانه الفقراء، ولنتعاون على تدبير حاجاتهم كل قدر استطاعته. فما رأيكم؟

قال أحدهم:

- بارك الله بك يا سعد، فلك من اسمك نصيب. أنا موافق على اقتراحك.

ومن بعد وافق الآخرون، واتفقوا أن يكون لقاؤهم الأول مساء يوم الجمعة، والثاني مساء يوم الثلاثاء من كل أسبوع. عرض أكبرهم سنا عليهم أن يكون لقاؤهم يوم الجمعة في ضيافته... فجاء كلامه مسك

الختام... استأذنوا مُضيفهم بالانصراف، والأمل يحدوهم أن تتغيّر الأنواء، وتهدأ العاصفة، وتنقشع سحب السماء الكثيفة، ثم يتوقف المطر حتى يخرجوا حيواناتهم إلى مراعيها.

رافقهم سعد إلى الباب الخارجي ثم أغلق المضافة، وذهب لينام. فلم يستطع؛ بسبب الهواجس التي داهمته، لكن أكثرها إلحاحًا ناجاه:
- تصوّر يا سعد، إن صحَّ ما سمعته عن العاصفة، وبامتدادها لأيام آتية. يعني نفاد علف حيواناتك... فمن أين ستأتي بالمال لتشتري علفًا آخر يغطي بقية الموسم؟

هذا الهاجس جعل سعدًا يتقلب في فراشه مهمومًا مغمومًا؛ ولكي يتخلص منه أخذ يتضرع إلى الله أن يجلي الغيوم من السماء، ويكشف الحجاب عن وجه الشمس، ويتوقف المطر حتى يخرج القطيع إلى المرعى ليوفر جزءًا من العلف، وأن يُقدِّره الله على تعويض الفاقد منه.

كان سعد يلحّ بطلبه، ويكثر من ذكر الله، لكن الهواجس بقيت تداهمه بين الفينة والأخرى حتى خطفه النوم، فلم يستيقظ إلا على صوت المؤذن يصدح: "الصلاة خير من النوم". نتفض قائمًا من فراشه، وتوجه إلى صحن الدار مباشرةً يطالع السماء، فرآها مازالت ملبدة بالغيوم السود، والمطر ينهمر تارةً، ويتوقف أخرى. فسمع هاجسه القوي يناجيه:

- يا حسرتاه يا سعد، ما زالت الأنواء على حالها منذ أمس. هذا يعني أن الحيوانات ستظل حبيسة بالحظيرة يومًا آخر، وبذلك سينفد جزء من العلف. ماذا ستفعل؟

هزَّ سعد رأسه ألمًا لا فرحًا، وعاد أدراجه من صحن الدار مهمومًا محزونًا. توضأ، ثم صلّى الفجر، ودعا الله منيبًا أن يكشف بصيرته، ويهديه إلى طريق يخلصه من معاناته...

استلقى على فراشه متألما. سرح خياله بعيدًا، فلمح نفقًا في نهايته

بصيص نور فاستبشر خيرًا... هبّ واقفًا، ثم أسرع إلى صحن الدار ينظر إلى السماء، وقلبه متعلق بربه أن يهديه إلى عمل مشروع ذي رأس ماله بسيط يسهم في زيادة دخله السنوي. طال تفكيره حتى ضجر، وضاق صدره ذرعًا، فتوجه إلى مزرعته الملحقة بالبيت يطالعها. لفتت نظره في جانب حظيرة الأبقار بقعة مرتفعة تفحصها بدقة من مختلف الجهات، فتبين له أن صخرها ضارب في الأرض عُمقًا. يصعب نزعه لكي تصلح للزراعة. فتساءل:

- لِمَ لا أستثمر هذه القطعة في بناء قن كبير أربي فيه كتاكيت وعندما تكبر أبيعها حية في السوق؟

أجرى حسبة لتكلفة المشروع فوجدها يسيرة، ولا يتطلب عمالة تحمّله عبئًا ماليًا.

عاد إلى المضافة، ورسم خطة المشروع، و بدأ تنفيذها من دون تلكؤ، فقصد بيت أحد البنائين ذوي الخبرة في بناء الأقنان. ثم اصطحبه إلى المزرعة. ليطلعه على المكان... تفحص الرجل الأرض، ووافق على بناء القن. قال سعد:

- يا معلم، أنت تفحصت الموقع، فأود منك أن تبني لي عليه قرب السياج قنًا متوسط الحجم يستوعب عشرات الدجاج، قابلاً للتوسعة متى شئت، واترك أمامه بضعة أمتار كمرعى للدجاج، ثم أكمل السور حولهما حتى لا يدخل الدجاج إلى المزرعة.

عاد الرجلان إلى المضافة، واتفقا على التكلفة، وبمجرد أن هدأت العاصفة. بدأ الفني بناء القنّ والسور من جهاته الثلاث الأخرى. فأنجز عمله خلال أيام قليلة.

تسلّمه سعد، وبدأ يجهزه من الداخل، ثم نقل إليه الدجاج القديم، منتظرًا أن تسمح ظروفه بالسفر... ولما توافرت الظروف قصد سوق بيع الدواجن في المدينة، واشترى منه عشرات الكتاكيت. وأسكنها

القن الجديد مع الدجاج القديم، وشرع يخدّم عليها بنفسه. يخرجها صباحًا إلى المرعى، ويعيدها مساءً إلى القن.

ولما كبرت الكتاكيت أبقى جُزءًا منها في المزرعة حتى تتكاثر، وحمل الآخر إلى السوق فباعه، واشترى ديكًا شابًّا حمله إلى قريته، ثم أطلقه بين الدجاج في المرعى. فلمحه الديك القديم الذي انتفض بوجه، وهزّ عُرفه مهددًا:

- ما الذي جاء بك أيها الغريب الجبان إلى مملكتي؟ لن أسمح لك بالإقامة بيننا ما دام فيّ عرق ينبض. سأرغمك على المغادرة. ألا تعلم أن دخولك المرعى انتهاك للمحرمات؟ كيف استساغت نفسك أن تدخل على حريمي؟ لن أسمح لك بأن تمسَّ أيًّا منهن.

أُعجب سعد بحمية الديك الهرم، وأحب أن يراقب ردة فعل الآخر على هذا التحدي، فتخيله يقول للديك الكبير:

- هوّن على نفسك يا جاري، ولا تزعج نفسك. فالمكان واسع، والحريم كثيرًات. فمن ترغب بك منهن فلك، ومن ترغب فيّ. فهي ترفضك. فما شأنك بها؟

هذا الرد أثار حفيظة الديك العجوز فزاد غضبه، ورفع من حميته. فتوجه إليه غاضبًا:

أمامك بضع دقائق لترك حياضي. فإن تعذر عليك الخروج فاقبع ذليلاً في إحدى زاويا مملكتي وإلا قطعتك قطعًا صغيرة للقطط حتى تأكلك.

- والله، يا سيدي، أنت غريب عجيب، ألست في خريف العمر؟ ألم تتعلّم من الحياة بأنها دول بين الخلق يعطيها الله لمن يشاء، وينزعها ممن يشاء؟

- يا وغد ماذا تقول؟ تود أن تحكم مملكتي، تبًا لك.

وهجم عليه، فنشبت بينهما معركة حامية. انزوت خلالها الدجاجات

متكورات على أنفسهن في زوايا المرعى يراقبن ما يحدث، فقالت إحداهن:

- ما شاء الله! يبدو زوجنا ما زال قويًّا، لاحظن كيف ينقض على الديك الشاب بل ينقره في وجهه لقد كاد أن يعطبه.

تدخلت ثانية:

- أخيتي، لا تتسرعي، الأمور يُحكم عليها بخواتيمها. فما يدريك أن الديك الشاب يخبئ له مفاجأة؟ولا تنسي أن زوجنا باغته. فالشاب لم يُمض بيننا سوى لحظات. فللمكان رهبته عليه، كما أن للجمهور تأثيره على الخصم.

استمر نزاعهما دقائق. وسعد يراقب ما يحدث. ثم اقترب منهما، أخذ الديك الشاب، ووضعه في قفص حتى الصباح. وحين أخرج الدجاج إلى المرعى أطلقه مع الدجاج، وأودع الديك الكبير في القفص، ثم وضعه أمام القن ليتمكن من رؤية ما يجري في المرعى.

لم تمض إلا دقائق على الديك الجديد فى المرعى حتى بدأ يتقرب من الدجاجات فإذا اقترب من إحداهن انتفض الديك الكبير في القفص محاولاً الفكاك، لكن أنى له ذلك؟ ولما فشل بالخروج وجَّه إلى الديك الشاب رسالة مفادها:

- ألا تخجل من نفسك، وأنت تتقرب من حريم غيرك أيها الوغد الغريب؟آه لو فتح لي هذا السجن لحطمت رأسك... اهرب عن وجهي. قبحك الله من دخيل كريه مارق.

كان الديك الشاب ينظر إليه، وفي نفسه أن يقول له:

- يا عم، لا تزعج نفسك كثيرًا، بل تأكّد يا جاري العجوز، لو كن راضيات بك لما تقربن مني. أنا لا أرد على تصرفاتك الصبيانية رغم كبر سنك. لكن عرضي مازال قائمًا؛ فمن ترغب منهن بك فهي لك، ومن ترفضك فهي لي.

ثم اقترب من إحداهن أكثر من اللزوم فانتفض الديك الكبير في القفص يود تهشيمه حتى يتحرر، متحركًا يمينًا وشمالاً، لكن لا جدوى. فيعاود ضرب شبك القفص بجناحيه.

في حين أبدى الديك الشاب برودة أعصاب. فإذا اقترب من إحداهن، وبقيت متسمرة في مكانها اختلس نظرة سريعة لجاره الحبيس كيلا يؤجج غضبه أكثر، فينهك البقية الباقية من صحة تذوي بفعل السنين؛ لذلك يصبّر نفسه، ويتظاهر بالبُعد عنها.

هكذا بقي المشهد بين الديكين شبه معركة عن بُعد كالحرب الباردة... حتى جاء سعد مساءً، وأدخل الدجاج إلى القن، فوضع حدًا للمشهد الكوميدي الممزوج بلمحات تراجيدية تعاطفًا مع الديك الهرم، والذي أبقاه حبيسًا في القفص بعيدًا عن الشاب حتى لا يفتك أحدهما بالآخر.

في الصباح فتح سعد باب القن ليخرج الدجاج إلى المرعى. ولما همّ الديك الشاب بالخروج أمسكه، وفتح القفص أخرج الهرم ووضع مكانه الشاب، ثم حمل القفص ووضعه في مكان يمكّن المحبوس فيه من رؤية القسم الأكبر من المرعى.

بدأ الديك الشاب يراقب المشهد ليرى ماذا يجرى في المرعى، فالديك العجوز أخذ يقفز بين الدجاجات مختالاً، متظاهرًا بالنشاط، ومتقرّبًا منهن؛ ليثير غضب الصغير عبر رسالة بأنه مازال محتفظًا بنشاطه وإن كبُر سنه.

تصرفات العجوز لم ترق الشاب ورآها شبيهة بتصرف المراهقين، كان ينظر من طرف خفي لما يجري في المرعى فأكثر ما أعجبه هروب دجاجة شابة من جاره العجوز عندما تقرب منها فتولدت لديه رغبة في إيصال رسالة إلى عمه العجوز يقول فيها:

- يا عم، لن تتمكن من إزعاجي بحركاتك كمراهق. فمنذ اليوم الأول قلت رأيي: من تريدك فلك، ومن ترفضك فهي تريدني، وأضيف اليوم:

ما هي إلا لحظات حتى تنتهي صلاحيتك. فينصرف أكثرهن عنك. يكفيني اليوم أن شابة منهن حين اقتربتَ منها هربت. ألم تصلك رسالتها؟ لن تمر أيام كثيرة حتى ينصرفن عنك. فاترك أوهامك ودعنا نعش جارين متحابين.

بقي سعد أسبوعًا كاملاً يبادل بين الديكين في القفص حتى صبيحة اليوم الثامن فلما جاء كعادته أخرج الدجاج من القن بما في ذلك الشاب، ثم فتح باب القفص للعجوز فانطلق مسرعًا فرحًا. بينما انزوى الشاب في زاوية المرعى خشية أن يثير حفيظة جاره، والذي يسير بخيلاء بين الدجاج كأن يقول: (يا أرض اشتدي لا أحد قدي)، ويتقرب منهن. الشاب يرقب المشهد فلمح غير دجاجة تهرب من أمام العجوز. سرَّه المشهد كثيرًا، وابتسم ابتسامة عريضة، ثم هزّ عُرفه طربًا فبوادر ما توقعه بدأ يحصل. بقي مكانه ولم يحرك ساكنًا، وبقي ينظر بطرف عينه؛ فالعجوز كلما هربت دجاجة من أمامه نظر إلى جهة الشاب، متمنيًا ألّا يكون رآها... هذا التصرف من الدجاج أزعجه أيما إزعاج، فبدأت غيرته عليهن تتضاءل، فلم يمض وقت طويل حتى استسلم للواقع.

كان سعد يراقب من بعيد. اقترب من الديك الشاب ثم نهره ليدخل بين الدجاج. تقدم الديك ببطء وهو يخشى غضب العجوز، وتابع سيره، أما العجوز فاكتفى بالنظر إليه.

بتوالي الأيام ألف كلاهما الآخر. فأيقن سعد أنه نجح في ترويض العجوز على قبول الصغير أن يحكم معه مملكته - ولو غصبًا - فلا حيلة في يده تقدره على إزاحة الشاب عن الساحة التي ظنها يومًا حِكرًا عليه. فبمجرد أن وصل إلى طريق مسدود قبل مشاركة غيره في حكم مملكة الدجاج تجنبًا لمخاطر قد تجلب له اعتلال الصحة.

كل يوم يمر عليه بمجاورة الشاب يذهب جُزءًا من غيرته لإدراكه أن

معركته مع الشاب محسومة سلفًا. فحصيف الرأي في الحياة إذا تعرض للعاصفة انحني معها حتى لا تقتلعه، فيهلك والغصة في صدره...

أمور كثيرة تقع في ساحة حياتنا ولا طاقة لنا عليها فالأسلم أن نتقبلها فقد نهزم مرة بالانحناء أمام العاصفة. فهذا الانهزام أفضل من أن نهلك وتلحقنا الهزيمة مدى الدهر. فقد قال المتنبي الحكيم:

ومن نكد الدنيا على الحُر أن يرى عدوًا له ما من صداقته بُد

لقد اعتبر المتنبي أن العيش مع العدو نكد دنيوي يتجرع المرء مرغمًا، لكن الأمر بالنسبة للديك العجوز مختلف بالكُلية، فسُّنة الحياة اقتضت قبول مقولة:

(لو دامت لغيرك لما وصلت لك).

(٥)

شتـلة نُـهـى

"نُهى" طفلة صغيرة خفيفة الظل مرحة، معروفة بأنها صاحبة وجه مشرق. رسمت على فمها ابتسامة شبه دائمة حبّبتها لكثير ممن يراها، بلغت من العمر ست سنوات. تمضي معظم وقتها بعد عودتها من الروضة في غرفتها مع لِعبها، فتارةً تمسك اللعبة تقلّبها بين يديها ثم تناديها باسمها، وتارةً تأخذ أخرى تداعبها كأنها طفلة صغيرة. تضمها إلى صدرها تهمس في أذنها كلامًا لا ترغب في أن يسمعه غيرها، فمن ينظر إليها من بعيد يظنها دمية إن لم تتحرك، فحجم جسمها كحجم دماها الكبيرة.

ذات يوم أحبت أن ترتب لِعبها. فتذكرت دبدوبها المحبب لها(جون) لم تجده على الرغم من بحثها عنه في الغرفة... خرجت من عرفتها متوجهة إلى الصالة لتسأل أمها، وبمجرد أن لمحتها أمها أشارت إليها بيدها كي ترجع.

عادت نُهى إلى الغرفة حزينة من تصرف أمها، وأخذت تفكّر بالسبب. فتهافت عليها أسئلة كثيرة:

- هل ارتكبتُ خطأً ما، تود ماما معاقبتي عليه؟... ربما تشاهد ماما برنامجًا لا ترغب في أن أراه... أترغب أمي أن تأتي إلى غرفتي لترى ما أعمل؟

وهكذا دواليك، لكن رأيها استقر أخيرًا على أن تنتظر دقائق قبل أن تعود إلى الصالة لتسأل أمها عن جون...

ولما مضت بضع دقائق توجهت نهى إلى الصالة مرة أخرى، وبمجرد أن اقتربت من أمها رأتها تضع يدها على فمها -أي لا تتكلمي- وتشير بظهر يدها الأخرى- أي ارجعي.

رجعت المسكينة إلى غرفتها، ورمت جسدها على سريرها، وبدأت تنتحب بصوت وصل إلى أمها، والتي لم تتحرك من مكانها قيد أنملة؛ لانشغالها ببرنامج على شاشة التلفاز، يستعرض ضيفه بعضًا من نباتات الزينة التي يمكن لربة المنزل أن تزرعها في بيتها حتى تضفي عليه مسحات من الجمال، فضلاً عن الراحة النفسية التي تبعثها النباتات بمن يطالعها. البرنامج جذب أم نهى كثيرًا، فتابعته حتى النهاية... ولما أنهى الضيف حديثه أطفأت التلفاز، وتوجهت إلى غرفة نهى فوجدتها تمسح دموعها. فأسرعت إليها، وضمتها إلى صدرها وقالت:

- حبيبتي نهى، ماما تحبك كثيرًا، لم تبكين؟

نظرت نهى إلى أمها، وهي تمسح دموعها، وقالت:

- وأنا أحبك يا ماما، لكنني استغربت تصرفك معي.

- وردتي الجميلة، أرجوك، ألا تحزني، بل سامحيني، أنا لم أقصد الإساءة إليك أبدًا، وإنما كنت أتابع برنامجًا يتحدث عن نباتات زينة المنزل. فشدني إليه، وولَّد لدية رغبة في معرفة مزيد عنها، فتابعته حتى أجمع أكبر كم من المعلومات حتى نزيّن بيتنا؛ فخشيت فقد جزء من المعلومات بانشغالي معك.

- أرجوك سامحيني.

طوقت نهى عنق أمها بذراعيها، قبلتها، وقالت:

- ماما، والله أنا أحبك من قلبي.

- يا بنتي، أنا وبابا نحبك كثيرًا، فأنت أغلى ما في حياتنا. ربي يبسط في عمرك حتى نفرح بتفوقك في المدرسة، واعلمي يا حبيبتي، أنك بعد

أيام ستذهبين إلى المدرسة الابتدائية... - ما شاء الله- تكبرين بسرعة! ونكبر معك. ربنا يديم علينا هذه النعم. سأكفِّر عن تصرف اليوم معك بأن أعدك يا حبيبتي بمفاجأة غدًا.

لم تكد نهى تصدق ما تسمع، فكادت تطير فرحًا، وانصرف تفكيرها إلى نوع المفاجأة، ما تكون؟

أخذت تنتظر مجيء الغد بفارغ الصبر، فالوقت يمضى عليها بطيئًا، فبمجرد أن استيقظت صباحًا ذهبت إلى أمها، والتي كانت تعد طعام الإفطار، وقالت:

- ماما حبيتي، أنتِ أمس وعدتني بمفاجأة.

- نعم، يا وردتي الجميلة، لكن بعد أن نتناول طعام الإفطار، ويذهب بابا إلى عمله.

- شكرًا، يا أحلى أم! ماما من فضلك قولي ما المفاجأة؟

ضحكت الأم، وضمت نهى إلى صدرها، وقالت:

- إذا قلت لكِ، فلن تبقى مفاجأة.

- ماما، ماما، بالله عليك قولي ما بقي لدي صبر؟

- حلوتي نهى، صبرتِ ساعات طوالاً. والحين صعُب عليك أن تصبري سويعات قليلة.

هزَّت نهى رأسها، وقالت:

- سأصبر يا ماما حتى لا تتراجعي عن وعدك لي بالمفاجأة العتيدة.

ضحكت الأم، وقالت:

نهى ما دمت متشوقة لمعرفة المفاجأة ساعديني على نقل الأطباق.

- أمري لله يا ماما، سأساعدك حتى أستعجل المفاجأة.

تناولت الأسرة طعام الإفطار، ثم ذهب والد نهى إلى عمله. رفعت الأم

الأطباق عن الطاولة لتغسلها، وفي أثناء ترتيبها الصالة قالت لابنتها:

- نهى حبيبتي، اذهبي وغيري ملابسك لنذهب.

- ماما حبيبتي، إلى أين سنذهب؟

- نهى الحلوة، قلت غير مرة مفاجأة.

- ماما، لم يعد لدي صبر؛ لأني أعيش على أعصابي، وأنتظر المفاجأة... لكنها ضحكت، وقالت:

- حاضر يا ماما، سأذهب لأغيّر ملابسي علَّني أعرف المفاجأة.

غيّرت نهى ملابسها، وقالت:

- ماما حبيبتي، أنا جاهزة.

فردَّت الأم قائلة:

- وأنا جاهزة أيضًا.

خرجت الأم من المنزل مصحوبة بنهى التي حاولت معرفة جهة ذهابهما، لكن الأم تكتمت عليه، وأخذتها من طريق آخر يوصل إلى مكتبة الحي، ولما وصلتاها سلمت الأم على الموظف وقالت له:

- أريد- إذا سمحت - أن تضع بين يدي أكثر من كتاب يتحدث عن نباتات الزينة المنزلية لأختار أحدها. أما أنت يا بنتي، فاذهبي إلى ركن الألعاب واختاري دمية تعجبك.

- شكرًا ماما.

أسرعت نهى إلى الركن، وأخذت تطالع الألعاب على الأرفف. فكلما أُعجبت بلعبة سبقتها عيناها إلى لعبة أخرى، فتقول في سرها: هذه أحسن، وتسرع إليها. تأخذها بين يديها تقلبها، فترى غيرها، هكذا دواليك حتى وصلت إلى آخر الأرفف. فوقع اختيارها على دبدوب ضخم يكاد يساوي حجم جسمها... فرحت به فرحًا عظيمًا. ولما

حملته كاد يحجب جسمها عن الآخرين... سارت إلى أمها سعيدة باختيارها، وفي الطريق لمحت رفّا، تُعرض عليه ألعاب تعليمية... اقتربت منه. نقّلت عينيها بين لعبه فأعجبت بلعبة تركيب غابة حيوانات تحوطها أشجار مختلفة، لكنها تذكرت أن أمها اشترطت عليها... تنهدت بعمق، وبلعت لعابها، ومنّت نفسها بشرائها في الزيارة القادمة... تابعت طريقها إلى أمها، والتي بدورها اختارت كتابًا عن نباتات الزينة. فسألتها:

- ماما، ماما، انظري إلى الدبدوب. ما رأيك فيه؟

- حبيتي نهى، (بجنن)، اختيارك هذا يظهر أنك قادرة على أن تختاري ألعابك بنفسك.

- شكرًا ماما.

دفعت الأم ثمن الكتاب والدبدوب للموظف، وحملتهما، وهمّت بالمغادرة، لكن نهى تلكأت. فقالت لها أمها:

- خير، يا طير ما لها حلوتي تتلكأ، ألا ترغبين في المغادرة؟

- لا، لاشيء ماما.

- إذًا تفضلي معي.

خرجت الأم خارج المكتبة، لكن نهى تحركت ببطء شديد فوصلت رسالتها إلى الأم بأن شيئًا ما في نفس ابنتها. فصاحت بصوت مرتفع:

- نهى، أتريدين شيئًا؟ قولي قبل أن نغادر المكتبة

- ماما، أنا خجلة منك، نعم، لقد رأيت لعبة تعليمية أحببتها. أتسمحين لي أن أشتريها؟

ضحكت الأم، وقالت:

- أسمح لك، لكن بشرط!

ضحكت نهى هي الأخرى، وهزت رأسها، وقالت:

- عرفت، تودين مقابل ذلك أن يزيد حبك في قلبي أليس كذلك؟

- بنت ما هذا الكلام ألم تقولي من قبل بأنك تحبين ماما حُبًّا أكبر من الجبال؟ أبقي لديك متسع لحُب أكثر؟

- نعم، أنا أحبك وسع الدنيا. لكن سمعتك تقولين ذات مرة. (الحب لا حدود له).

ضحكت الأم من أعماقها، وقالت:

- اذهبي يا مجنونة ماما، وائتي باللعبة، فكم نهى عندي؟

- ماما، والله أنا أحبك وسع السموات والأرض.

لم تكد نهى تصدق ما سمعته، فانطلقت مسرعة إلى اللعبة. أخذتها، وعادت إلى أمها التي دفعت ثمنها للبائع. غلّفها الرجل. فأخذتها نهى وهي تردد:

- شكرًا، شكرًا يا أحلى أم في الدنيا، وتابعتا مسيرهما حتى وصلتا البيت مسرورتين.

وبمجرد أن دخلت غرفتها شرعت ترتب لِعبها، وجُل اهتمامها منصب على إيجاد مكان مناسب يليق بالدبدوب الجديد، في حين وضعت لعبة التركيب على مكتبها الصغير... ولما أنهت ترتيب اللعب جلست إلى مكتبها، فضَّت غلاف اللعبة. أخرجتها. قلَّبتها بين يديها علَّها تهتدي إلى طريقة تركيبها لتكون مفاجأة لأمها. وقع اختيارها على تركيب جسم الحصان. حاولت غير مرة، لكنها فشلت.

حملت أجزاء اللعبة، وذهبت لأمها كي تساعدها... أخذت الأم دليل اللعبة قرأته، وشرعت تعلّم نهى أن عليها أولاً اختيار الجزء الأكبر من جسم الحيوان المرغوب تركيبه، وقالت:

- نهى الحلوة، اختاري الجزء الأكبر من جسم الحصان.

اختارت نهى الجزء الأكبر من جسم الحصان وبالطريقة نفسها تابعت اختيار بقية الأجزاء. وكلما اختارت جُزءًا أخذته الأم وركّبته في مكانه حتى ركبت الجسم كاملاً. ثم سألت ابنتها:

- ما رأيك؟ انظري إليه جيدًا، وقارنيه مع الشكل المرسوم في دليل اللعبة. أمطابق؟

- نعم، ماما، مطابق.

- إذًا يا نهى الجميلة فككيه، وأعيدي تركيبه.

فككت نهى مجسم الحصان، وبدأت تركبه من جديد. بذلت جهدًا مضنيًا حتى ركبّته، وبمجرد أن اكتمل تركيبه، صاحت بصوتٍ عالٍ:

- الله، الله لقد تمكنت يا ماما، من تركيبه.

- أنت ممتازة يا نهى، أتعرفين لأي حيوان هذا المجسم؟

- نعم، ماما إنه مجسم الحصان.

- أحسنت يا بنتي، أما الآن فحاولي تركيب مجسم لحيوان آخر.

أخذت نهى الدليل من جديد لتختار مجسمًا جديدًا، فاستمالها مجسم الثور، قلّبت قطع اللعبة وهي تنظر إلى الدليل ثم اختارت قطعة توقعتها الجزء الأوسط من مجسم الثور، ثم أخرى لتركبها فلم تركب معها. حاولت مرارا فلم توفق. تأففت، واستبدلت بها أخرى... حاولت مرات ومرات، لكنها فشلت، فنادت:

- ماما، ماما حبيبتي، بالله عليك ساعديني.

جاءت الأم، وهي تضحك، وقالت بسخرية:

- أجئت باللعبة لأركّبها أنا أم أنت؟

- سامحيني ماما، آخر مرة.

نظرت الأم إلى قطع اللعبة، وقالت:

-ماذا تريدين تركيبه؟

- أريد تركيب مجسم الثور.

- حسنًا، انظري إلى شكل الثور في الدليل أولاً ثم اختاري جزءه الأكبر لتبدئي التركيب.

نظرت نهى إلى شكل الثور بالدليل، قارنت بينه وبين ما اختارته فوجدتهما مختلفين.

- ماما، هذا الجزء لا يشبه الجزء الأكبر من مجسم الثور في الدليل.

- حسنًا يا نهى، إذًا اختار ي الجزء الذي يشبه رسم الدليل، وأعلمي أن الفرق كبير بين مجسم الحصان ومجسم الثور، فالجزء الأوسط من الحصان يكون أكثر طولاً، وأقل عرضًا من جزءالثور الأوسط، والثور له قرنان، والحصان لا قرون له. إلا أن رقبته أطول ويغطيها شعر طويل، وأذناه تتجهان للأعلى، في حين تتجه أذنا الثور إلى جانبيه مع ارتفاع بسيط. فإن استطعت تركيب مجسم الثور سأصطحبك غدًا إلى السوق.

- شكرًا ماما، سأحاول تركيبه، فإن تعذَّر علي اليوم، أركبه غدًا قبل ذهابنا. أتوافقين؟

- اتفقنا، شرط أن تركبيه قبل ذهابنا إلى السوق.

- حاضر، ماما.

أخذت أم نهى كتاب نباتات الزينة، وبدأت قراءة مقدمته ثم اطلعت على الفهرس. فشدها تنوّع النباتات، فتناولت عن مكتب زوجها مذكرة لتدون أسماء النباتات التي ترغب فيها...

في ضحى اليوم التالي طالعت ما ركبته نهى من مجسم الثور فأعجبها، نظرت لها، وقالت:

- حبيبتي، أنتِ ممتازة؛ ما ركبته من مجسم الثور صحيح؛ لذلك اذهبي، وغيري ملابسك حتى نذهب إلى السوق.

صاحت نهى بصوت مرتفع.

- حاضر يا ماما يا حلوة الحلوات. كم أنا سعيدة!

لم تمض بضع دقائق حتى صاحت:

- ماما أنا جاهزة.

فردت الأم:

- وأنا كذلك.

خرجتا إلى الشارع الرئيس ثم استقلتا سيارة أجرة، وذهبتا إلى سوق نباتات الزينة، حيث اشترت أم نهى ما يلزمها من تراب وسماد وأصص وشتلات مختلفة؛ لتبدأ مشروع تجميل بيتها.

أوقفت أم نهى سيارة أجرة أخرى. وضع عامل المحل مشترياتها في صندوق السيارة، التي أقلتهما إلى البيت.. فلما وصلتاه أنزل السائق المشتريات، وأدخلها إلى الصالة، ثم انصرف.

يبدو أن ذهاب السوق أتعب أم نهى فقالت لابنتها:

- حبيبتي سأدخل إلى غرفتي لآخذ قسطًا من الراحة.

- ماما كما تريدين. أنا سأذهب إلى غرفتي لإكمال تركيب مجسم الثور.

- على بركة الله يا حبيبتي.

- استلقت الأم على سريرها قرابة ساعة. فلما عاد إليها نشاطها تناولت الكتاب لتقرأ كيف تزرع شتلات الزينة، فبدا لها أن الفكرة التي كونتها كافية لبدء الزراعة... ففي اليوم التالي بمجرد أن غادر الزوج إلى عمله شرعت تطبق ما قرأته حرفيًا، اختارت مكانًا مناسبًا بالصالة، ثم نقلت إليه مقومات المشروع، وبدأت تغرس الشتلات...

كانت نهى تراقب أمها خطوة، فخطوة، بدءًا من ملء الأصيص بالتراب، ثم غرس الشتلة ورشها ماء. فاستغلت انشغال أمها فأخذت أصيصًا وترابًا وشتلة، وهي تظن أن الأمر سهل. ملأت الأصيص ترابًا محاكية أمها، ثم غرست الشتلة في التراب، وتناولت قارورة ماء لترشها فوجدت الشتلة ملاقاة على وجه الأصيص. حاولت غير مرة، لكن الشتلة تسقط بمجرد أن ترفع يدها عنها.

ركضت الواهمة ببساطة زراعة الشتلة إلى مكان الشتلات. أعادت الشتلة إلى مكانها، ثم قلبت الأخريات، وسحبت أطولهن، آملة أن تثبت في الأصيص. غرست جُزءًا منها في التراب، ولما تناولت قارورة الماء لترشها وجدتها على وجه الأصيص...

احتارت مما يجري، فأخذت تناجي:

- شتلتي الحلوة، لماذا تسقطين إذا رفعت يدي عنك؟والله ما رفعتها إلا لأرشك ماء حتى تثبتي في مكانك، ولأضع لك طعامًا؛ نحن-البشر- نأكل، ونشرب حتى نبقى على قيد الحياة، وتكبر أجسامنا... هل أزعجتك بشيء، بربك قولي حتى لا أكرره؟

- شتلتي الحلوة، أنا مذهولة من عدم انتصابك في الأصيص رغم أني مهَّدت لك التربة، ونزعت منها الشوائب التي تعكر مزاجك، فغدت لائقة برقتك. أراك تسقطين كلما رفعت يدي عنك... أتعاكسين رغبتي أم تحبين أن تغرسك ماما كأخواتك؟... شتلتي الجميلة، لا بل وردتي الفوّاحة، أنا أحببتك من قلبي فاخترتك من دون غيرك، فأملي أن تسهمي مع أخواتك في تجميل بيتنا. ففي كل صباح سأضع لك طعاما، وأرشك ماء لتكبري. وتكوني كأخواتك في الأصص عند البائع كان منظرهن جميلاً. فلم لا تكوني مثلهن؟ واعلمي أن مكانك هنا أفضل، وأحسن من مكانهن. فبابا يا حلوتي، سيمر صباحًا من هنا فيراك؛ لذلك أرجوك أن تهمسي لي ما يزعجك في الأصيص حتى أزيله. قولي:

أتخافين ألا تصلك أشعة الشمس أم تخشين تقييد حركتك بكثرة التراب؟... تأكدي، يا جميلتي، أنني سأرعاك، وألبي كل متطلباتك، وأزيل مخاوفك، لكن أرجوك إذا زرعتك ثانية أن تثبتي مكانك، وسترين مني عناية لا نظير لها.

أخذت نهى تبحث عن طريقة تمكنها من إرضاء الشتلة كي تبقى منتصبة في الأصيص... سرح خيالها، فتخيلت النبتة تعتلي تراب الأصيص خضراء نامية ذات صباح تستقبلها بابتسامة زيّنتها وردة حمراء، يتضوع عبقها فيما حولها فليهج لسان من يراها مردِّدا: سبحان الله العظيم!ما أطيب هذه الرائحة! سلمت يداك يا من زرعت الشتلة.

لكن نهى تذكرت أن أمها نثرت مادة بيضاء فوق التراب قبل أن ترش الشتلة بالماء، فأسرعت إلى كيس السماد، وأخذت حفنة، ثم رشتها على وجه التراب فرحة، متخيلة أن إهمالها للمادة أزعج الشتلة، فعادت نهى تناجيها من جديد:

- أيتها الغالية عرفت سبب انزعاجك. سامحيني- والله لم أقصد- أنا أعتذر منك، وأعدك أن أراقب ماما وهي ترعى شتلاتها لأفعل معك مثلما تفعله مع أخواتك. اطمئني. أرضيت؟

نقلت نهى الشتلة من يد لأخرى. فكادت تسقط من يدها أرضًا، فتخيلت الشتلة تعاتبها:

- عزيزتي نهى، بم تفسرين حركة يدك الأخرى السريعة التي انتشلتني من السقوط أرضًا؟ أليس هذا دليلاً عل إهمالك واستهتارك؟أنا لاحظت أمك وهي تأخذ الشتلات برفق ولين متناهيين وتزرعهن في التراب. ألا تتعلمين يا صغيرتي منها؟كل الصغار يتعلمون من الكبار، ويقلدونهم بعدما يرون ممارساتهم العملية حتى لا يفشلوا... صاحبتي نهى، هلا فعلتِ هذا بأناة؟... يا نهود، أنتِ خطفتني من دون إذن أمك لتظهري لها بأنك قادرة على منافستها.... نهود الحلوة، أنت

لم تتواضعي لأمك، ولتسأليها سؤالاً واحدًا وهي الأكبر سِنًا، وخبرة... أتعرفين كم بذلت أمك من جهد حتى كوَّنت خبرتها عن زراعة نباتات الزينة؟... ألا ينبغي أن تأخذي إذنها؛ لأنها صاحبة الشتلات؟ كيف سمحتِ لنفسك أن تأخذ الشتلة الأولى، ولما فشلتِ في غرسها أعدتها إلى مكانها، وأخذت الثانية بدون إذنها أيضا؟... حبيبتي نهود، أنتِ لم تتمسكي بالشتلة الأولى، وستفعلين معي إن لم انتصب في الأصيص ما فعلته معها. هل عرفت يا صغيرتي كم خطأ ارتكبت ببساطتك هذه؟ أيصح منا نحن -الصغار- أن نتصرف بالأمور على هوانا وبلا خبرة؟... هل أدركتِ خطأكِ قبل أن تعرفي سبب سقوطنا كلما حاولت زرعنا؟

أخذت نهى نفسًا طويلاً... قبَّلت الشتلة وقالت:

- ما تقولينه يا صديقتي صحيح، أنا أعاهدك مستقبلاً ألّا أفعله، لكن الآن ساعديني إذا زرعتك في التراب ألا تسقطي على وجه الأصيص.

أعادت نهى تسوية تراب الأصيص من جديد. حفرت فيه حفرة. ثم غرست الشتلة، وسوت التراب من حولها، واستدارت لتأخذ الماء لترشها فوجدتها ملقاة على وجه الأصيص... بكت بحرقة جراء فشلها لأكثر من مرة، وأسرعت إلى أمها تسألها أن تقبل اعتذارها عن أخذها الشتلة بلا إذنها. كم كانت راغبة في زراعة الشتلة حتى تُفاجئ أمها، لكنها لم توفق. رجت أمها أن تعلمها حتى تبقى شتلتها منصبة.

مسحت الأم على رأس نهى، وقالت:

- حبيبتي، هوني على نفسك. أنا سامحتك. ازرعيها الآن أمامي حتى أكتشف خطأك.

جثت أم نهى على ركبتيها أمام الأصيص تنظر إلى نهى، وهي تسوي التربة، وتحفر حفرة فيها، ثم أخذت الشتلة، وغرستها، وسوّت التراب حولها. فلما تناولت الماء لترشها وجدتها ملقاة على وجه الأصيص، فقالت بعصبية وشدة:

- أماه، الشتلة تعاندني، ولا ترضى أن تنتصب. والله لم أزعجها فلم تفعل معي هذا؟

- حبيبتي، لا تظني بالشتلة سوءًا. سأزرعها أمامك. لاحظي كيف تتصرف الشتلة معي؟

أخذت الأم الشتلة. غرستها في التراب، ثم رفعت يدها فسقطت الشتلة.

- ما رأيك يا حلوتي، هل تعاندني الشتلة، أعرفت خطأك الآن؟

- لا، يا ماما، لو عرفته لتراجعت عنه.

- حسنًا، لاحظي يابنتي، عمق حفرتك. وقارنيه بعمق الحفرة التي سأحفرها في تربة الأصيص تعرفي السبب.

حفرت الأم حفرة أعمق من حفرة نهى، وغرست الشتلة فيها، ثم سوّت التراب من حولها، وتركتها فلم تسقط على وجه الأصيص. فصاحت نهى فرحة:

- ما شاء الله! لقد نجحت المحاولة، الشتلة لم تسقط. سآتي بالماء حتى أرشها.

قالت الأم:

- نهود، ابنتي الحلوة، هل عرفت الآن سبب سقوط الشتلة؟

- نعم، ماما يبدو لي أن حفرتك أعمق من حفري التي حفرتها في التربة. أليس كذلك؟

- بلى، يا ابنتي، حفرتك سطحية لا يستطيع جزء الشتلة المغروس في التراب حمل انتصاب الجزء الأعلى والأكبر؛ لذلك تفقد توازنها، وتسقط.

شكرت نهى لأمها هذا الدرس المفيد، وتوجّهت إلى الشتلة قائلة:

- أنا أشكرك يا شتلتي الجميلة من قلبي، لقد تعلمت منك الكثير. سامحيني لأنني ظننتك معاندة. سأعتني بك يوميًا حتى تبتسمي عن وردة يملأ شذاها أرجاء الصالة.

ثم لحقت بأمها فرحة تقول:

- حقًا، علّمتني الشتلة الصغيرة درسًا لن أنساه أبدًا... تعلمت منها أن السؤال عن الأشياء التي نجلها مهم للغاية، ولا يقلل من قيمة صاحب السؤال، بل يوفر له الوقت والجهد... كم ضيعت وقتًا في محاولاتي الجاهلة، وأرهقت نفسي، وظننت بالآخرين سوءا !أما الآن فقد تعلمت أهمية السؤال في نجاح العمل؛ لذلك سأبدأ المرحلة الثانية، وهي رعاية شتلتي يوميًا. سأفعل كما تفعل ماما. أما أنت يا ماما، سامحيني لأنني سأقلدك بكل عمل تقومين فيه حتى ينجح مشروع شتلتي.

بدأت نهى مرحلتها الثانية برعاية شتلتها يومًا بعد آخر فإذا صحت من نومها صبحت عليها، ثم سقتها ماءً خفيفًا. أحيانًا تنثر فوق تربتها ذرات من السماد. فإن وجدت حولها عشبة متطفلة نزعتها من أصولها، ثم قلّبت تربتها لتسمح بتسلل الهواء إلى جذورها بما يسهل وصول الغذاء إليها.

بقيت نهى يوميًا تقلد أمها في رعاية شتلتها أولاً فأولاً، حتى جاء يوم اختلف عن سابقيه فبمجرد أن صحت نهى من نومها ذهبت إلى شتلها لتصبح عليها كعادتها فلمحت وردة حمراء صغيرة تبتسم لها ضمن وريقات خضر فلم تكد تصدق ما ترى. طارت من الفرح، وصاحت بأعلى صوتها:

- ماما، ماما، بابا، بابا تعالا، انظرا إلى شتلتي كيف أثمرت؟

جاء أبوها أولاً فلما شاهد وردة الشتلة تبتسم عن وردة حمراء احتضن نهى وقال:

- ما شاء الله! لقد أثمر زرعك يا بنتي قبل زرع أمك.

قبَّلها غير مرة... ولما وصلت أمها فاجأتها ابتسامة الشتلة فقالت:

- "... فتبارك الله أحسن الخالقين" ورب العزة قد فزتِ يا نهى، فها هي شتلتك غلبت شتلاتي وابتسمت قبلهن فسبحان الرزاق العليم! أراد الله أن يسعدك، وأن لا يضيع عليك اجتهادك... فألف مبارك لك يا حبيبتي؛ فأنت الآن تستحقين منا مفاجأة جديدة مقابل مفاجأة شتلتك لنا. أليس كذلك يا أبا نهى؟

- حقًا، لنهى عندي مفاجأة، يا بنتي لم أكن بعيدًا عن الساحة فأنا أراقب من بعيد وماما كانت تنقل لي حرصك على إثمار شتلتك، وحبك لمحاكاتها، لكن مفاجأتي مرهونة بقيامك بعمل فيه الاعتماد على النفس أولاً لأنه سيدخل الفرح على قلبك وعلينا أكثر من إثمار شتلتك. أتعديني ذلك؟

- حاضر بابا، أعدك.

بدأت نهى مرحلة جديدة تفكّر في عمل تعتمد به على نفسها أولاً حتى تفرح ويفرح معها أبواها وتحصل على المفاجأة...؟؟؟ هل وجدته؟؟؟

(٦)

هِـرّة نـورة

نورة صغرى أخواتها الثلاث اللائي يعشن مع أبويهن في بيت ريفي ملحق بالمطحنة الوحيدة في المنطقة، والتي بناها أهل القرية بعيدًا عن بيوتهم تفاديًا لضجيجها وصخبها. فبيت أبوي نورة كان أقرب إلى الطريق السريع من أي بيت آخر في القرية، هذا الطريق يربط بين عدة مدن بالعاصمة؛ لذلك تستخدمه يوميًا مئات الحافلات والشاحنات والسيارات الصغيرة والكبيرة، وعربات النقل العسكرية التي تنقل معدات الجيش الثقيلة؛ ما جعله مصدر خطر دائم لمن يحاول اجتيازه من المارَّة إلى الطرف الآخر.

ذات يوم رغبت أم نورة في زيارة والدتها بالعاصمة. فاصطحبت ابنتها الصغرى نورة معها... فلما وصلتا بيت الجدة شاهدت نورة في البيت هرة كبيرة تُرضع قططًا صغارًا. فإذا شعرت إحداهن بالشبع تركت ضرع أمها، وابتعدت عنها قليلاً، لكنها سرعان ما تعود تتمرغ على صدر ها، فتبدأ الأم تمسح على فرو الهرة الناعم بلسانها. فتنطلق أخرى مبتعدة عن الأم... هكذا كأنهن يتقن تبادل الأدوار... هذاالمشهد أعجب نورة، فتقدمت منهن وبمجرد أن خطت خطوتها الأولى هربنَّ وتكوّرن حول أمهن. تابعت سيرها ببطء ولما وصلتهن مدت يدها لتمسح على فرو إحداهن فابتعدن عن الأم. أخذت نوره تمسح فرو الأم، وتلاعبها حتى تجرأت إحداهن واقتربت من أمها. استغلت نورة اقترابها، ومدت يدها إلى فروها، ومسحته، ثم كررت المسح عليه. فعلام يبدو أن الأخريات أعجبهن صنيع نورة فكن ينظرن إليها، وهي تمسح تارةً لأمهن، وتارةً

لأختهن، فوصلتهن رسالة نورة. اقتربن إلى أمهن فمدت نورها يدها إلى إحداهن فلم تهرب، مسحت على فروها وهكذا فعلت مع الأخريات.

استمرت تلاعبهن وتمسح على فروهن لحظات حتى أيقنت أنهن أنسن قربها. فأحبت أن توثق العلاقة معهن أكثر، فجاءت بطبق مملوء حليبًا، وبآخر مملوء ماء، وقدمتهما لهن. فأقبلن على طبق الحليب يلعقن. ولما تكرر صنيعها معهن بدأن يلحقنها أينما تذهب في البيت.

قضت نورة نهارها تلاعبهن حتى تولّدت لديها رغبة في أن تصطحب إحداهن. فقبل أن تغادر قالت لأمها:

- ماما، أرجوكِ أن تكلّمي جدتي كي تسمح لي بأن أصطحب إحدى قططها الصغار إلى بيتنا حتى ألعب معها عندما تكون أختاي بالمدرسة. وسأحافظ عليها بكل ما أوتيت من قوة، أرعاها، أنظفها، أطعمها، أسقيها، ألعب معها... وستفرح أختاي بها كثيرًا، وستلعبان معها.

- يا بنتي، بيتنا قريب من طريق سريع، حركة السيارات عليه ليل نهار. والقطط لا تستقر على حال، فأخشى إن خرجت إلى الطريق أن تدهسها سيارة عابرة؛ فتكوني السبب.

- ماما، لِمَ التشاؤم؟ لن أتركها وحدها. وسأعلمها إذا فُتح بابنا ألّا تقترب منه. فلا تقلقي.

لم تجب الأم. عرفت نورة أن أمها لن تنقل طلبها لجدتها. فكرت مليّا كيف تنقل رغبتها لجدتها. لما جلست الجدة، اقتربت نورة منها، قبَّلتها غير مرة، ثم قالت:

- جدتي، أنا أحبّك كثيرًا. فهل تحبينني؟

- فلذتي نورة، سؤالك غريب. أيعقل ألا تحب جدة حفيدتها الصغيرة؟ فأنتِ في عيني هاتين.

- إذًا ما دمت، يا جدتي الجميلة، تحبينني، أرجوك ألا ترفضي طلبي. ضحكت الجدة وقالت:

- اسمعوا يا ناس، حبيبتي نورة الصغيرة أصبح لديها طلبات! ما طلبك يا حلوتي؟

- عليك نور يا أحسن جدة، أريد أن تعطيني قطة صغيرة من قططكم حتى أربيها في بيتنا.

نظرت إليها جدتها، وأطالت النظر، ثم هزت رأسها، وضمتها إلى صدرها تقبّلها وتقول:

- وردتي نويّر، أتظنين قططي رخيصة؟ لا، وألف لا. إنها باهظة الثمن. إن دفعتِ ثمنها فخذيها.

نظرت نورة إلى أمها مستغربة من كلام جدتها. كأنها تقول: أحقًا تريد جدتي ثمن الهرة؟

لمحت الجدة استغراب نورة. فلم تفوت الفرصة، وتكسر خاطرها، واستدركت:

- نُويّر الحلوة، اختاري أولاً إحدى القطط، وسأبارك لك بشرط أن تحافظي عليها، وتهتمي برعايتها، فهي أمانة كانت في عنقي، وسأنقلها إلى عنقك وعنق أمك. أعرفت الحين، ما ثمنها؟

اقتربت نورة من جدتها، وقبّلت رأسها ويديها. ثم طالعت القطط. فاختارت إحداهن. وقالت:

- يا جدتي الحبيبة، سآخذ هذه، أتباركين لي فيها؟

- مباركة عليك يا حبيبتي، فلا أود أن أكرر وصيتي.

- يا أحلى جدة من عيوني... وستبقى في بيتنا معززة مكرّمة.

ودعت أم نورة أمها، وطلبت منها أن تبلغ أخاها الوحيد الذي تأخر في عمله تحياتها وشوقها لرؤيته، ووعدت في المرة القادمة أن تطيل فترة زيارتها حتى تراه... ثم غادرت وابنتها متوجهتين إلى مجمع الحافلات، حيث استقلا حافلة القرية عائدتين إلى منزلهما.

كانت نورة سعيدة بقطتها وبمجرد أن وصلت البيت، دخلت بقطتها إلى غرفتها. لحقت بها أختاها. فإذا اقتربت إحداهما تتلمس فرو القطة هربت، واختبأت وراء نورة التي تضحك من المشهد. لكنها رجتهما أن تغادرا الغرفة لتبدأ درسها الأول مع قطتها... لكنهما تلكأت، ولم تخرجا من الغرفة. أردت نورة تحقيق رغبتهما، فأمسكت القطة بيد، وبيدها الأخرى أمسكت يد إحدى أختيها، وبدأت تمسح بها فرو القطة التي استسلمت، لتسمع الدرس الأول من نورة:

- قطتي الصغيرة، هاتان أختاي، يحبانك ويرغبان في نسج صداقة معك فلا تخافي منهما... لكن يا حلوتي، سأعمل بنصيحة جدتي، أتسمحين لي أن أناديك (لوسي)أم (نور)؟

استدركت نورة قائلة:

- لا، لا، لوسي أحسن فأنا نورة فلا يصح أن نتشابه بأسمائنا... حبيبتي لوسي، أنا اخترتك من بين أخواتك، وسأرعاك أجمل رعاية، فأرجوك ألّا تخرجي خارج البيت بنفسك. فيا لوسي الصغيرة، أمام بيتنا طريق خطر للغاية من يفكر باجتيازه إلى الطرف الآخر يحسب ألف حساب خشية التعرض للدهس. منذ أيام حاولت دجاجة للجيران اجتيازه إلى الطرف الآخر. فلم تكد تقطع أمتارًا حتى دهستها سيارة مسرعة... أعرفتِ سر طلبي منك؟

كانت نورة تحدث لوسي، وتفرك وبرها، فإذ بالقطة الصغيرة ترفع رأسها فجأة، وتنظر إلى وجه نورة تشكوها على ما فعلته، كأنها تقول:

- نورة تقولين بأنك تحبينني. أمن الحب أن تبعديني عن أمي وأخواتي؟ أنا حزينة لفراقهن وربما لن أراهن ثانية. فلم فعلت هذا؟ أيروق لك أن أعيش وحيدة ومقيدة، أيعجبك أن أترك أسرتي من أجل سعادتك، ألم تفكري لحظة بمصاب أسرتي وهي تفتقد فردًا منها بلا سبب؟... يا ابنة الناس، استغفري ربك، وتوبي إليه. فأنا لي حُرمة عنده. فقد

حدثتنا أمي أن امرأة دخلت النار بسبب هرة، حيث منعتها أن تخرج لتأكل من رزق الله.

- عزيزتي نورة، إنك تخشين علي مجرد الخروج من البيت؛ لأنك تحبينني، لكن يا حلوتي، أنسيت أن أمي وأخواتي أيضًا يحببنني كثيرًا، ويخفن عليّ؟ أتدرين يا نورة، ما حالهن الآن بعدما افتقدنني؟ كم هن حزينات علي؟ فربما لا يروق الأكل لهن طالما أنا بعيدة عنهن، وقد يبحثن عني خارج البيت؛ لظنهن أني تائهة... نورة الجميلة، على الرغم من رقتك ولطفك أنتِ أنانية؛ فضَّلتِ نفسك علينا جميعًا. سامحك الله كم فجعتِ قلوبًا! هكذا أنتم البشر تظنون أننا حيوانات لا مشاعر لدينا ولا إحساسات. لا يا حلوتي، نحن مثلكم، نفرح ونحزن ونخاف ونتألم ونبكي ونضحك. أعرفت ماذا فعلت يا نُويّر؟... ألم تناديك جدتك بهذا الاسم؟

- لوسي حبيبتي، لك الحق في كل حرف تنطقينه، لكن يا صديقتي، هل تتوقعين أن بقاءك مع أمك وأخواتك أبدي؟بالتأكيد لا، فسيأتي يوم تتفرقن. إذًا فلم هذا التأنيب كله؟ فإن أنا تركتك فسيأتي غيري ليأخذك، أو يأخذ أختك، وهكذا تتفرقن... حبيبتي لوسي، ارضي بواقعك وعيشي يومك هذا بهناءة فلا تعكريه بأشياء لا طاقة لك عليها. يكفيك أنني أحبك، وأخدمك وقد أكون أفضل من شخص آخر يأخذك من أسرتك. فمهما طال مقامك معهن. تأكدي أنك لن تبقي في بيت جدتي إلى الأبد. سيأخذك غيري ولمَّا يملّ منك يرميك في الشارع وحيدة بلا مأوى... أيعجبك هذا؟

تركت لوسي حضن نورة، ووقفت أمامها وجهًا لوجه كأنها تحدثها:

- صديقتي نُويّر، إن رماني في الشارع أصبحت حرة طليقة أذهب أنَّى شئت في أرض الله الواسعة. آكل من خيراتها كغيري من دوابها، فهن يا صديقتي وجدن لهن المأوى. وبعضهن يتخذن أغصان الشجر

مأوى، وأخريات حفرة أو صخرة وهكذا... لن أموت يا صديقتي قبل أن أستنفد رزقي وعمري.. فلا تحمّليني جميلاً بمأواك أو مطعمك. فالله رزقك المطعم والمأوى.

- لوسي، الحلوة. دعي هذا الكلام. ولنتفق معًا على برنامج حياة فما فات مات. فأنت لن تعودي إلى بيت جدتي. وأنا أخاف عليك فلن أرميك خارج بيتنا. بل العكس أنا أطلب منك ألا تخرجي منه. فيا صغيرتي لوسي. أنا عاهدت جدتي أن أحفظك. فأرجوك أن تقبلي طلبي بألّا تخرجي إلى الطريق السريع حتى لا تتعرضي للمخاطر. فلولا حبي لك لما حرصت عليك. أتسمعين؟ لن أعكر مزاجك أبدًا. ولك مطلق الحرية في البيت تذهبين أنى شئت، وتأكلين من الطعام نفسه الذي نأكله، وسأرعاك كما وعدتك فما رأيك يا لوسي، هل اتفقنا؟

أسرعت لوسي إلى حضن نورة تتمرغ فيه كأنها تقول:

- صديقتي نُويّر، شاءت إرادة الله أن نكون صديقتين. فكلامك الحلو، وحبك لي، وحرصك على سلامتي جعلني أطمئن لمستقبلي، لكنك تعجزين عن تعويضي رؤية أمي وأخواتي فأنت ستكونين لي أُمًّا وأُختًا، لكن يبقى لي عندك طلب. أتسمحين أن أقوله؟

- بكل حُب، قولي ما تشائين ما دمنا اتفقنا.

- نُويّر الحلوة، أرجوكِ إن ذهبتِ يومًا إلى بيت جدتك فاحمليني معك لعلي أرى أسرتي.

صمتت نورة هنيهة... ومسحت دمعة من عينها، وقالت:

- اتفقنا يا حبيبتي.

ثم احتضنتها إلى صدرها أكثر، وشرعت تقبلها، وتمسح فروها الناعم.. وعيناها تسمرتا بعيني هرتها لوسي التي بادلتها النظر كأنهما توقّعان عقدًا بينهما.

(٧)

مـخـدوع اللـون

ورث الشاب سعد عن أبيه قطعة أرض زراعية. ارتأى أن يستثمر جُزءًا منها في تربية الأبقار الحلوب، والجزء الآخر في الأشجار المثمرة... أجرى حسبة سريعة لتكلفة المشروع المالية، فوجدها تفوق ما لديه من مال. قصد غير صديق لاستلاف المبلغ فلم يفلح، فقرر أن يعرض جُزءًا من الأرض للبيع. وبمجرد أن باعه بدأ يعد البنية التحتية للمشروع كمرحلة أولى فاختار مكانًا لبناء حظيرة للأبقار، وآخر لحفر بئر، كما خصص جُزءًا لزراعة العلف كالبرسيم وغيره. أما الباقي فغرسه شجيرات مثمرة.

بدأ المرحلة الثانية من مشروعه بالاتفاق مع فني؛ ليبني له حظيرة تستوعب بضع عشرات من الأبقار. إضافة إلى ساقية لها جدولان، يخصِّص أحدهما لسقي الأبقار والآخر لعلفها، وسورًا يحيط بالأرض. كما اتفق مع رجلين آخرين لحفر بئر للماء.

وبمجرد أن أُنجزت البنية التحتية كاملة. نزل سعد إلى سوق الحيوانات، واشترى ثورًا وأربع بقرات، شكَّلوا قوام مشروعه، ثم أخذ يرعاهم بنفسه حتى تكاثروا، وشكّلوا بعد بضع سنوات قطيعًا صغيرًا كلما رآه عائدًا من المرعى سرّه منظره، وعدده النامي، فينطلق لسانه شاكرًا لربه هذه النِّعم.

ذات صباح حضر سعد إلى الحظيرة كعادته. ولما فتح بابها تدافعت الثيران للخروج. فكان الثور الأبيض أسبقها إلى الباب. أخرجه سعد.

فرح الثور بإخراجه من دون الآخرين، فكأن حاله تقول: اليوم لن يزاحمني على طعام الساقية أحد.

لكن سعدًا جره بعيدًا عنها، ثم ركّب خلفه عربة، وانطلق إلى الكرم.

في الطريق سأل الثور المخدوع نفسه قائلاً:

- ما السر في اختيار سعد لي من دون الآخرين؟

فتواردت إلى ذهنه احتمالات كثيرة، ناقشها كلها، ثم هزّ رأسه طربًا وغرورًا، متمتمًا:

- على ما يبدو أن لوني الأبيض استهوى سعدًا فأحبَّني. أما الثوران الآخران فقد غلب عليهما اللون الأسود.

فداخله بعض العُجب والغرور والتعالي. فأضاف:

- لله دري ما أجمل لوني! فبياضه الموشى بالنقاط السود الصغيرة جعله متميزًا من لون صديقيّ، حيث غلب على لونهما الأسود الداكن كالليل المظلم. من نظر إليهما لحقته الكآبة. يبدو أن صاحبنا سعدًا يحب الجمال؛ لذلك أراد إكرامي فساقني إلى الكرم حتى آكل ما لذّ وطاب.

هزَّ رأسه طربًا وغرورًا وأضاف:

- عند عودتي مساءً سأحدث صديقيّ في الحظيرة عن الاحتفاء الذي نلته في الكرم.

سكت لحظة، وتوهم المغرور أن تمييز سعد له قد يجعله ذا حظوة عنده في نظر بعض جيرانه في الحظيرة فيتملقونه تقربًا كي يرضى عنهم سعد.

أخيرًا وصل سعد إلى الكرم. فكَّ العربة، ثم ركّب مكانها محراثًا رومانيًا، وبدأ يحرث الأرض بلا توقف. فإذا تلكأ الثور المخدوع وخزه بعصا

رُكّب في رأسها مسمار ليسرع الخطى.

استمر سعد لساعات في حرث الأرض حتى أُنهك المخدوع، وتمنى لو أنه ابتعد عن الباب تجنبًا لهذا الشقاء غير المسبوق. نظر سعد إلى قرص الشمس فوجده أقرب للمغرب من المشرق. أوقف الثور، وفكّ المحراث ثم ركب العربة من جديد. وقفل راجعًا.

دخل الثور المخدوع إلى الحظيرة فوجدها خالية من الحيوانات. تمدَّد أرضًا منهكًا تعبًا، لكن سعدًا أخرجه إلى الساقية، ووضع له طعامًا جديدًا مكافأةً له. فعاوده غروره، ودبّر في نفسه أمرًا. أكل من الطعام بلا نفس من شدة التعب، ثم شرب، فارتخى جسمه، واستسلم للنوم. فلم يصح إلا على تدافع الحيوانات العائدة من المرعى... فلمح أحد الثورين قريبًا منه. سأله ماذا فعلتم في المرعى اليوم فردَّ عليه جاره:

- ذهبنا اليوم إلى مرعى جديد، أعشابه وفيرة للغاية لم نبذل جهدًا كبيرًا في ملء بطوننا كما كل اليوم... كم تمنيت لو أنك معنا يا صديقي... أما الآن فأخبرني أين ذهبت اليوم؟

تظاهر بالسعادة والرضا وتمطى بعُنقه للأعلى زهوًا وصلفًا، وقال:

- صاحبنا سعد يبدو عشق لوني، وفضلني عليكما، فخصني اليوم برحلة إلى الكرم، حيث تركني آكل من العشب الوفير ما لذ وطاب، لم أرَ يا صديقي، أعشابًا بهذه الوفرة. ولم يكتف بذلك بل وضع لي طعاما في الساقية لم يسبق أن وضعه لنا. فإذا أحببت التأكد فكن صباحًا السابق إلى الباب لترى بقايا الطعام في الساقية. فالتهمه قبل أن يصل إليه غيرك فيلتهمه، إنه لذيذ جدًا، وذو نكهة طيبة.

أراد بهذا الكلام أن يوقع الثور في شرك ليأخذه سعد وبذلك يتجنب المشقة التي لحقت به أمس.

يبدو أن كلام الثور المعسول أغرى صاحبه، فوقع في الشرك فأضمر أن يكون صباحًا الأقرب من باب الحظيرة ليأخذه سعد إلى الكرم كي

ينعم بما لذ وطاب من حشائش مدحها صديقه الأبيض؛ لذلك بقي معظم الليل يقظا يترقّب أي حركة تقع خارج الحظيرة. فبمجرد أن سمع المفتاح يفتح القفل اندفع إلى الباب فكان الأسبق. أخذه سعد، وغلّق الباب خلفه.

جاء الراعي كعادته ضحى، وساق الحيوانات إلى المرعى حتى المساء. ولما رجع القطيع إلى الحظيرة أسرع الثور الأبيض إلى محدثه أمس، وقال له:

- إياك، ثم إياك والبوح بالحقيقة؛ فإن بُحت بها فسيأخذك سعد يوميا. فالأولى أن تتظاهر بالفرح والرضا، لعلَّ الثور الثالث يكون الأقرب للباب فيأخذه صاحبنا إلى الكرم. وأذهب أنا وأنت إلى المرعى... ثم اتفقا أن يأخذا زاوية بعيدة عن باب الحظيرة ليناما فيها حتى الصباح لكي يضمنا نجاح خطتهما. فإذا جاء سعد صباحًا أخذ الثور الأقرب من الباب فليكن هو الأقرب.

حضر سعد كعادته إلى الحظيرة، فوجد الثور الثالث هو الأقرب. ساقه إلى خارجها، وركب عليه عربته، ثم سار إلى الكرم، فهناك وضع على عاتقه المحراث، وسلّمه خط الحرث، وبدأ يحرث بهمة، فأعجب بحيوية الثور المفرطة في العمل، وبقوته، فظن أن قوة الثور ستفتر بعد دقائق، لكن الحقيقة أثبتت العكس فبقي الثور على تلك الحال، حيث مكّن سعد من إنجاز ما بقي من حرث في وقت قياسي. ولم يستخدم معه العصا لينهره ليسرع الخطى إلا بضع مرات.

أخرج سعد الثور من الأرض المحروثة، ورفع المحراث عن عاتقه، ثم تركه حُرًّا ليأكل من الأعشاب النامية على جوانب الكرم كما شاء، كما أضمر أن يكرمه مساءً بعلف جديد من دون غيره. فقد أثبت أنه أفضل من الثورين الآخرين، فخصَّصه لحرث الأرض، أما بقية الأعمال فتركها للثورين الآخرين اللذين بقيا فترة طويلة بلا عمل تقريبًا... يذهبان إلى

المرعى صباحًا، ويعودان مساءً.

امتداد فترة الراحة انعكس أثره على جسم الثور الأبيض، فاكتنز لحما وشحمًا، وغدا متميزًا من صديقيه.

ذات مساء جاء جار لسعد يرغب في شراء أحد الثيران، فعرض عليه سعد الثور المخدوع بلونه وصديقه من دون الثالث. ولما طالعهما أعجب بجسم الثور الأبيض فاختاره. نقد سعدًا ثمنه، وساقه إلى بيته. أدخله إلى شبه حظيرة لا حيوانات فيها. بقي مخدوع اللون كل الليل شبه يقظ خوفًا من المجهول الذي ورط نفسه فيه.

في الصباح الباكر حضر الرجل، وساق الثور أمامه، ثم ركّب عليه عربة، وخرج به إلى الحقل من دون أن يضع له أي طعام أو شراب... ولما وصل الحقل ركّب حول عنقه لفة من القماش مربوط فيها سيران يصلان إلى دولاب ثُبت فوق بئر. ثم أمسك بزمام الثور، وجذبه بقوة للأمام ليلحق به، سار الثور خلفه، فحرك الدولاب. فاندفع الماء نحوالساقية بقوة. أخذ الفلاح يراقب حركة الثور حتى اطمئن، ثم تابع سير الماء حتى وصل إلى الأرض التي ينوي ريها. شرع يوجه المياه حسب حاجة المزروعات.

بقي المسكين يدور بالدولاب عدة ساعات... هذا العمل الشاق المتواصل أنهك قواه ؛ لأنه لم يمارسه من قبل، إضافةً إلى أنه لم يأخذ طعامًا منذ عصر أمس.

وبمجرد أن أنهى الرجل ري الأرض رفع الدولاب عن عاتق الثور وربطه إلى وتد قريب من البئر في أرض شبه جرداء لا نبات ناميًا فيها يمكنه التهامه ليسد جُزءًا من جوعه. في حين انشغل الرجل في جمع بعض الحشائش من الأرض.

نظر الثور إلى السماء، وبدأ يقول:

- ماذا فعلت بنفسي الشقية التي أتعبتها الراحة على ما يبدو؟ تبًا لي، مهما كان عملي شاقًا في حرث أرض الكرم القاسية فإنه لا يقارن بهذا الشقاء الذي عايشته اليوم... ويلٌ لي، ماذا فعلت بنفسي، فها أنا أعيش وحيدًا بعيدًا عن صديقيّ اللذين كنت أشكو لهما أو لأحدهما همومي، وكانا يحملان عني أعباء كثيرة سأقوم بها وحيدًا. إنني أحصد نتيجة كذبي وخداعي. فلو كنت صادقًا مع نفسي أولاً ثم الآخرين لتابعت حياتي بلا لف، ولا دوران، وكنت تجنبت ما حصل لي فيبدو لي أنني وقعت ملك رجل بخيل، لا رأفة في قلبه تجاه الحيوان... آه، وألف آه، كيف استبدلت هذا بسعد الرجل الكريم معي ومع الآخرين. أنى أنسى كرمه لي بعد عودتي من الكرم قبل شهر تقريبًا عندما وضع لي في الساقية طعامًا لم يسبق أن وضعه لغيري؟ لكن بقلة حيلتي غدوت مُهانًا فريدًا في شبه حظيرة. لا صديق فيها لأبثه همي عله يخفف عني. لقد فقدت ميزات عشتها في حظيرة سعد. فعملي عنده يُعدّ نزهة إذاما قورن بعملي اليوم. ذاك العمل السهل فقدته لمجرد خطأ ارتكبته عندما زيّنت لصديقي عكس ما جرى معي في الكرم، فأوقعته في شركي ولم أكتف بذلك، بل تآمرت معه على صديقنا الثالث الذي نجح في اختبار سعد وكان صادقًا؛ فنال حظوة لديه فعرضنا للبيع من دونه.

جمع الفلاح حشائشه، ثم رفع لفة القماش عن رقبة الثور، وركب العربة ثانية، وقفل راجعًا إلى بيته، حيث قدَّم للثور بعض العلف والماء، لكن المسكين بقي ليلته يفكر بمصيره وما آل إليه.

وبتوالي الأيام عليه تنوعت أعماله بلا انقطاع. فالمُزارع تارةً يأخذه ليضخ الماء من البئر، وتارةً أخرى يحرث عليه أرضًا، وثالثة يجر عربة ينقل بها البضائع بين القرى فلايدخل إلى شبه الحظيرة قبل غروب الشمس. العمل المتواصل أرهقه، وأنهك جسمه حتى قلت رغبته في الأكل فهزل جسمه، وقلت حركته. فإذا رغب الفلاح في استخدامه

عذبه وأتعبه؛ لأن همته ضعيفة وسرعان ما تخور قواه فيسقط أرضًا، فإذا أنهضه بالقوة قام بصعوبة كقيام رجل مريض كبير السن أنهكه مرضه... فغدا الفلاح ينظر إليه شزرًا، كما نمت البغضاء في نفسه، فذات يوم قدم له علفًا مختلفًا، وبدأ يراقبه. تقدم الثور إلى العلف فشمه وحركه بلسانه ثم أحجم عنه فلا رغبة له في الطعام من شدة معاناته النفسية. هذا الموقف من الثور، وعزوفه عن تناول علف جديد يقدم له للمرة الأولى لفت نظر الفلاح، وجعله يفكر بمصير الثور، وبدا كمن يناجي الثور والحيرة تملأ صدره ليقول:

- ما دهاك؟ بل ما أصابك يا هذا؟ حتى خفَّ نشاطك وهزل جسمك. إن استمر تدهور صحتك خلال الأيام القادمة فسأعرضك للبيع.

ثم أطلق زفرات توحي بغضب يختزنه قلبه تجاه ثور كان يدّر دخلاً ماليًا وإن بدا متواضعًا لكنه يساعده بمصاريف أسرته.

كلام الفلاح المبطن بالتهديد وصل الثور فكان صادمًا أثَّر عليه نفسيًا وزاد من معاناته، ما انعكس على صحته، حتى كاد أن يذوب كمدًا وحسرة، وغدا أشبه بزهرة تذوي لتذبل. فلما رآه هكذا المزارع أيقن أن ثوره مريض مرضًا يصعب الشفاء منه فخشي أن يفقده. فعرضه للبيع.

جاء بضعة فلاحين لمطالعة الثور. فإذا مسك أحدهم فمه ليتأكد من سلامة أسنانه، أو ضرب كتفه بقوة ليمتحن تحمله زاد ألمه، وناجى نفسه:

- يا نفسي، يا أمارَّة بالسوء، كم كنتِ قاسية علي!إن رغبتك في الراحة والخمول جرت علي الويل والثبور حتى المزارع على الرغم من أعماله الكثيرة لم يعد راضيًا عني، فلو أنني خالفتك، وأعملت عقلي لما وصلت إلى هذا الدرك.

هزَّ رأسه ألمًا، وحسرةً، وأردف:

- يصعب علي اليوم إصلاح ما ضاع فكما قيل: (إذا فات الفوت ما ينفع الصوت)، لقد سبق السيف العذل. يا أمارَّة بالسوء تحملي وحصدي نتائج تهورك.

وصل خبر عرض الثور للبيع جزار القرية فوجد به ضالته؛ فأهل القرية مقبلون على أحد الأعياد. فشراؤهم للحوم يزيد؛ لذلك أسرع إلى المزارع، واشترى منه الثور، ثم بدأ يغدق على المخدوع العلف والماء من دون أن يكلفه أي عمل حتى تحسنت صحته، وعاد إليه بعض لحمه وشحمه فظن المسكين أن الأيام قد أقبلت عليه من جديد... بدأ يتحرك في مكانه ليظهر لصاحبه الجديد قوته ونشاطه، مقررًا تعطيل عاطفته، ومعملاً عقله، لكن المسكين المخدوع لم يكن يعلم أن كرم الجزار وراءه ما وراءه.. ولن يجدي معه التحايل، ولا التظاهر بالقوة والنشاط والاستعداد للعمل فكل ما سبق لن يجنبه حتفه الذي سار إليه بنفسه قيد أنملة... ففي اليوم الأول من أيام العيد جاء الجزار وساق المخدوع فظن أنه ذاهب للعمل فقال:

- لقد فرجت علي، يبدو أن صاحبي سيأخذني إلى الحقل. أعدك أيها الطيب الكريم أن أعمل بكل ما أوتيت من قوة. فأنت أكرمتني ونعمتني ومنحتني فسحة من الراحة حتى عادت إلي عافيتي فلن أكون أقل منك كرمًا.

لم تطل فرحته، فبمجرد أن وصل الجزار به إلى ساحة ترابية أمام الملحمة، ثم جاء بسكين كبيرة شحذها غير مرة. فغدت متشوقة للارتواء من دم ثور زينت له نفسه أن يعيش أوهامًا تجلب لصاحبها ما لا تحمد عقباها!

هل من معتبر؟؟

(٨)

خـالـد والبحـر

بيت صغير بُني على شاطئ البحر بعيدًا عن بيوتات القرية. تميّز منها بانفراده وقُربه من الشاطئ، فغدا ملفتًا للنظر. فإذا شطَّ المد في نشاطه يومًا نحو اليابسة قبّله غير قبلة حتى تركت قبلاته أثرها على جدرانه التي استأنست برؤيةالبحر، فسمحت له بتقبيلها؛ لذلك صمدت، ولم تتهاو أمام لكماته القوية، وخالتها مناكفة حبيب لحبيب ليس إلا...

فيه يسكن رجل وزوجته وابنهما خالد الذي لم يتجاوز الثامنة بعد. يعمل أبو خالد صيادًا للسمك. يخرج من بيته مبكرًا إلى البحر، ولا يعود إلا متأخرًا... في صبيحة اليوم التالي ينزل إلى السوق، ويبيع ما اصطاده من سمك ليشتري بثمنه حاجات أُسرته اليومية... وهكذا دواليك.

ذات مساء اقترب منه ابنه خالد، وقال:

- بابا، أتسمح لي أن أصحبك غدًا إلى الصيد حتى تعلمني حرفتك؛ لأشغل نفسي أيام العطل، وأملأ الفراغ؟

لم يُبد أبو خالد رأيًا، بل اكتفى بهز رأسه، والنظر إلى وجه خالد، فلمح فيه تغيّرًا، فخشي أن يكسر خاطر ولده الوحيد، فقال:

- يا ولدي، أعطني فرصة، حتى أشتري لك عدة صيد تناسبك، وسأخبرك بعدها كي تجهّز نفسك لنذهب معًا للصيد. أنا أدخل البحر، وأنت تصطاد من الشاطئ.

قام خالد مسرعًا، وقبّل رأس أبيه تعبيرًا عن شكره، وقال:
- حبيبي بابا، أمد الله في عمرك، كم أنت حنون، وحساس! فأسأل الله تعالى أن يوفقك في صيدك، ويرزقك المال الكثير حتى تتمكن من شراء بيت لنا داخل القرية لأرتاح من مشقة الذهاب صباحًا إلى المدرسة والعودة مساءً، وبخاصة في فصل الأمطار، ولألعب مع أصدقائي بعد انتهائنا من الدوام المدرسي.

هذا الكلام أوصل للأب رسالة مفادها أن ابنه غير سعيد بإقامته هذه، وهو الذي كان يظن أن ابنه سعيد جدًا بإقامته على شاطئ البحر الممتد امتداد البصر. ناهيك عن الهدوء الذي يخيم عليه معظم الأوقات، ولا يعكر صفوه صخب ولا ضجيج ما عدا أمواج البحر عندما يلاطم بعضها بعضًا، أو تضرب الشاطئ... فمجاورة أسرة خالد للبحر مدة طويلة جعلتها تألف هذا الصخب إذ تعودت عليه وتساوى لديها وجوده وعدمه. كما أنها تنعم بنظافة تفتقدها أزقة القرية. إضافة إلى شمس تصبّح على بيتها منذ إشراقها الأول، ولا تغادره حتى تتوارى في الحجاب. كي تسلمه إلى سكون جميل لا يقطعه إلا نسمات هواء بارد تهب من عمق البحر فتسهم في تلطيف جو المكان، وتكنس كل بقايا الحر الذي خلفته شمس النهار... في المقابل يعاني سكان القرية كل صيف من ارتفاع الحرارة فيضطرون إلى النوم ليلا على أسطح منازلهم.

تلقَّف أبو خالد رسالة ابنه، وبدأ يبحث عن أفضل طريق تمكنه من تحقيق رغبات ولده بالسكنى في القرية. قلّب كل السُّبل التي حضرت إلى مخيلته، فاهتدى بعد تفكير طويل إلى تغليب فكرة توفير بعض المال من مصرفاته اليومية كوسيلة قد تسهم في تحقيق ما يصبو إليه، حتى وإن كان المبلغ المدّخر يوميًا بسيطًا؛ لذلك قرر الاستغناء عن بعض المشتريات ليوفر قيمتها لشراء قارب صغير يسير بمحرك- وإن كان مستعملاً - يمكّنه من الدخول إلى منطقة أعمق في البحر ليزيد

كمية صيده. راجع مشترياته اليومية فوجدها ملحة يصعب الاستغناء عنها، فلجأ إلى تقليل كمية بعضها. قسا على نفسه وعلى أسرته بعض الوقت حتى تمكّن من جمع مبلغ بسيط أضافه لما يدخره من قبل، واشترى به قاربًا صغيرًا يسير بمحرك، إضافة إلى عدة صيد لخالد. ولما عاد من السوق قدم عدة الصيد هدية لخالد.

فرح خالد بهدية أبيه فرحًا شديدًا، وشكر له صنيعه.

ردَّ الرجل الشكر بأحسن وقال:

- ولدي خالد، جهِّز نفسك غدًا لتذهب معي إلى البحر حتى أعلمك كيف تصطاد سمكًا، ولم يخبره بشراء قارب ذي محرك.

لم يكد خالد يصدِّق ما سمع من شدة الفرح، وأخذ ينتظر قدوم الصباح بفارغ الصبر.

في الصباح اصطحب الأب ابنه خالدًا إلى شاطئ البحر تلبية لرغبته في تعلم الصيد. ولما وصلا الشاطئ بدأ الصياد ينقل أدوات صيده من القارب القديم إلى قارب آخر أكبر حجمًا، وعليه محرك صغير، فسأل خالد أباه:

- بابا، لمن هذا القارب الذي تنقل إليه أدوات صيدك؟

نظر الأب إلى خالد والبسمة تملأ وجهه قائلاً:

- لمن سيكون يا ولدي؟ أتذكر يا خالد يوم طلبت مني شراء عدة صيد لك أنك تمنيت أن يكون لنا بيت في القرية لتكون قريبًا من أصدقائك؟

نظر خالد إلى وجه أبيه، و هزّ رأسه، وقال:

- نعم، أذكر جيدًا. وما زلت أُمنِّي نفسي أن يكون لنا بيت في القرية نقيم فيه فترة فصل الشتاء على الأقل حتى أتجنب الأمطار الغزيرة في ذهابي للمدرسة.

- خالد، كلنا يتمنى ويريد، لكن الله يفعل ما يريد.. فيا ولدي، منذ ذلك اليوم وحتى أمس الأول وأنا أعمل وأمك على ترشيد بعض الحاجات اليومية حتى نوفّر ثمنها، ثم أضفته إلى مدخراتي القديمة حتى تمكنت من شراء هذا القارب المستعمل لأحقق رغبتك في السكن بالقرية مستقبلاً بإذن الله.

- يعني هذا القارب لنا، فألف مبارك عليك وعلى أمي. يا ربي اجعله آية رزق. لكن لماذا أخفيتما عني ذلك كل هذه الفترة؟

- لا يا ولدي، لم يكن إخفاؤنا عنك هدفه الإخفاء نفسه كما تظن، وإنما هدفنا ألاّ نشغلك عن دراستك، فأملنا كبير أن تأتي كل عام بمجموع متميّز حتى نفتخر بك.

- بابا، ما علاقة القارب بالسكن في القرية؟

- عليك نور، فأبوك يا خالد يطمح بالدخول إلى عمق البحر ليزيد كمية صيده من الأسماك، وبذلك يزيد دخله اليومي، وتزيد مدخراته التي ستمكّنه من شراء بيت في القرية يحقق رغبتك. ما رأيك يا بطل؟

اقترب خالد من أبيه، محاولاً احتضانه، وقال:

- كم أنت عظيم يا أبي! كم تكتنز من مروءة وحنان، كم أنا فخور بك؟ لذلك أعاهدك منذ اللحظة أن أبقى متفوقًا لأحقق رغبتك كما تسعى إلى تحقيق رغبتي.

منذ ذاك اليوم تكرر ذهاب خالد إلى البحر للصيد، فتارةً يدخل مع أبيه على ظهر القارب إلى عمق البحر، وأخرى يبقى على الشاطئ يصيد من سمكه.

في إحدى المرات تأخر أبو خالد عن موعده اليومي بالدخول إلى البحر، فترك خالد على الشاطئ ليصيد ما أمكنه، ثم سار بعيدًا في البحر، آملاً أن يعوض ما ضاع منه. مضت عليه ساعات داخل البحر حتى

دخل الليل، واشتدت حلكته. فخشي خالد أن يكون مكروه أصاب أباه، وحال من دون عودته. فانهالت عليه تخيلات مزعجة جلس القرفصاء، وألصق كفيه بخديه، ناسيًا صنارته بالماء، ثم سرح يقول همسًا:

- يا بحر، كم أنت كبير، وشاسع! ها أنا ذا أجلس مقابلك فلا تظهر لي نهايتك. فأراك تذهب بعيدًا، بعيدًا حتى تكاد تلتصق بالسماء. لقد سمعت أناسًا كثيرين يقولون: (إنك تبقى هادئًا حتى يطمئن زوارك، ثم تثور فجأة فتغدر بهم). أصحيح هذا يا كبير؟

لم يجبه البحر وبقي صامتًا، فقال خالد: سأجيب عنك يا كبير:

- أنا أرى عكس ما يقولون، فمثلك لا يغدر؛ لأنني عرفتك من قبل، فأبي منذ نعومة أظفاري يقصدك، وينال من خيراتك المتنوعة الكثير، الكثير. فعمرك ما بخلت عليه؛ فمستحيل أن يصدر هذا السخاء من غادر. لقد علمونا في المدرسة أن الكريم لا يخون ولا يخذل من جاءه... بالله عليك، يا كبير، سلّم لي أبي واحفظه لأسرته، وأرجعه لنا غانمًا كديدنك معه... هو يحبك كثيرًا يا كبير، ولا يجد متعته إلا معك، وفيك. فأنت أحب الأصدقاء إليه... يا بحر، أبي ترك البر وناسه وأُنسهم حتى أهله، وجاء ليركب موجك مستمتعًا برؤية أمواجك التي تتلاطم كأنها جبال تسد الأفق. كم من مرة هرب من أمواجك حتى لا يَصدق قولهم عليك بأنك تغدر بمن يصاحبك ويصادقك! فهو يُمضي معظم وقته في مائك؛ لأنك تؤنسه وتكرمه فغدا يحبك، فأنت صديقه الوحيد الأوحد... هو الآن يا عظيم، في ضيافتك وبحمايتك فلا تخذله بالله عليك... كم حدثني عنك. فهو يكتنز لك حُبًّا بحجمك الكبير الذي لا نهاية له. أتسمعني؟ والله أحببتك أيضًا بحُب أبي لك حتى أمي التي تركناها وحيدة تنتظرنا في المنزل تحبك. ألا ترى أننا جاورناك وابتعدنا عن البشر من أجلك. هل ترى أحدًا أقرب منا إليك؟ أسألك

بالله أن تعيد لي والدي سالمًا غانمًا عاجلاً غير آجل، ولا تفجعني به. فأنا صغير لا أستطيع تدبير أمري، ناهيك عن أمي المسكينة التي تترقب كل يوم عودة أبي بفارغ الصبر، فهي بمجرد أن يظهر من بعيد تتغير ملامح وجهها مستبشرة سعيدة بإطلالته. فلا تحرمها هذه السعادة. يا بحر أتسمعني؟

سكت خالد، آملاً أن يسمع جوابًا من البحر العظيم، ولما طال انتظاره ولا جواب من البحر. وأبوه ولم يعد بعد، أخذ يذرف الدموع خوفًا من وحشة الليل التي وجد نفسه وحيدًا فيها، إضافة إلى خوفه على أبيه من أن يحصل له ما لا تُحمد عقباه.

قطع شروده فجأة اهتزاز حبل الصنارة في يده فأعاد له رُشده. سحب حبل الصنارة التي أمسكت سمكة كبيرة، لم يتوقع أن يصيد سمكة بهذا الحجم. نزعها من الصنارة، واعتبرها عربون صداقة من البحر، ورسالة طمأنة مع ذلك بقي مصرًّا على أن يأخذ ضمانة أخرى.

استلقى على بطنه مفترشا الرمل، وتخيّل البحر يسأله:

- صديقي الصغير، كم عمرك؟

- تجاوزت الثامنة يا كبير.

- صديقي ما زلت صغيرًا على سماع حديثي؛ لأنني لا أحادث إلا الكبار... فمادمت تحبني سأحدثك، راجيًا يا صغيري، أن تصدق كلامي عملاً بمقولة إن المحب للمحب مطيع. أليس كذلك؟

- بلى، يا سيدي وصديقي الكبير، أنا حاضر.

- صديقي الصغير، إن اتفقنا حقا فاسمعني جيدًا. ثم انظر حولك يمينًا وشمالاً ماذا ترى على شاطئي؟

- سيدي البحر، أرى كثيرًا من المرميات والفضلات حتى أنها شوهت منظره العام.

- عليك نور يا صغيري، من ألقى بها؟

- أكيد زوَّارك منا - البشر- الذين جاؤوا يستمتعون بالنظر إليك، وليستنشقوا من هوائك المنعش، أو يصطادوا من سمك اللذيذ.

- أحسنت يا صديقي الصغير، ألا يُطلب ممن يحب الجمال أن يحافظ عليه؟ لكنهم للأسف جاؤوا قاصدين الجمال ثم شوهوه بقاذوراتهم التي خلفوها على شاطئي أو رموها في مائي... يا صديقي، لو اقتصر آذاهم على ذلك لكنت مسرورًا، لكن أنَّى سرت على امتداد الشاطئ في المدن الكبيرة وجدت العديد من المعامل تلقي في بطني مخلفاتها القاتلة ومياه صرفها الحي ليمتزج بمائي، ناهيك عن مخلفات السفن العملاقة التي تمخر عبابي ليل نهار، إضافة لركابها الذين يلقون فضلاتهم وسمومهم في مائي مع العلم بأنهم يشربون منه بعد تقطيره، أو نزوله من المزن، ويسقون حيواناتهم ومزروعاتهم منه... هل أستحق مقابل كرمي أذاهم؟

- لا، أبدًا يا سيدي.

- صديقي الصغير، علموكم في المدارس أنني غدار، أتعرف ماذا تعني غدار؟ تعني مباغتة الآخرين فجأة، والقضاء عليهم من دون سابق إنذار... هذا اتهام باطل لا صحة له فعلى الرغم من أذيتهم، أعطيهم بسخاء كنوزي سمكًا، ولحمًا طريًا صحيًا، ولؤلؤًا طبيعيًا تتزين به نساؤهم، وحديثًا بدؤوا يخرجون من قاعي البترول والغاز... يا حسرتا! كم حملت من قبل سفنهم الصغيرة والعملاقة، ولم أزل بأقل الأسعار قياسًا بوسائل النقل الأخرى. وهم يتهمونني بالغدر. هل من أحد يعطي كعطائي؟

تلعثم خالد فلم يجد جوابًا يرد، لكنه لمح من بعيد شبحًا يقترب من الشاطئ، فانشغل بمراقبته، متمنيًا أن يكون أباه، ونسي البحر.

لم يمض وقت طويل حتى وصل القارب الذي حمل أباه، فطار فرحًا، وصاح: أبي، أبي. وانطلق يركض نحوه في ماء البحر غير هيَّاب بعمق

الماء، وأبوه يناديه: كفى، كفى يا خالد لا تدخل أكثر فأنا قادم يا ولدي، لا تعرض نفسك للأذى.

فخالد من شدة فرحته تابع اندفاعه غير مكترث بعمق الماء حتى وصل مكانًا غمرته المياه. حاول الرجوع، لكن قوة دوران الماء في المكان سحبته إلى داخل البحر أكثر. أخذ يسبح حتى كادت قواه أن تخور.

لحظات قاسيات مرت على الصياد، وهو يرى ولده الوحيد يقاوم الغرق أمام عينه وليس لديه حيلة لإنقاذه إلا أن يضغط على البنزين إلى أقسى حد طلبًا للسرعة. كم تخيل شبح الموت أمامه يقترب مسرعًا من خالد ليخطفه من بين يديه فيرجوه: بالله عليك لا تأخذ خالدًا، بل خذ روحي وقاربي واتركه لأمه التي تضحي من أجله.

فإذا لمح ابنه مازال يقاوم وسط الماء زادت نبضات قلبه، وأراد أن يترك القارب ويرمي نفسه في ماء البحر ليذهب إليه سابحًا، لكنه تذكّر أن القارب أسرع منه.

تلك اللحظات المُرّة على خالد وأبيه أراد الله أن يضع لها حدًا، حيث وصل القارب إلى محاذاة خالد الذي مازال يقاوم. انحنى الأب الذي يكاد قلبه يتفطر من الألم وأمسك يد خالد، وسحبه إلى وسط القارب بسرعة وقوة لا يدري من أن أين جاءتاه. أنام خالد على بطنه، ورفع رجليه على جدار القارب حتى يلفظ الماء الذي دخل جوفه وأخذ يربت على كتفيه ليخرج الماء. ولما وصل إلى الشاطئ أوقف محرك القارب، وحمل خالد إلى اليابسة. أخذ يتلمسه غير مصدق ما جرى حتى فرجت عليه، ورأى خالد يفتح عينيه فنظر كلاهما إلى الآخر فخر الرجل ساجدًا لله أن سلم له ولده من الموت... ثم رفع رأسه من سجود طال، وقال:

- لله الحمد على سلامتك يا ولدي.

ولم ينطق بغيرها. ورجعا إلى البيت.

(٩)

اليتيـم وحـيـد

في قرية حدودية قريبة من فلسطين المحتلة عاش فلاح بسيط على ما يبيعه من محاصيل زراعية تؤمِّن له معظم حاجاته اليومية المعيشية لا أكثر. يساعده على ذلك ولده اليافع محمود الذي اقترب من عامه السابع عشر...

كان للفلاح أخ أكبر منه سنًّا في القرية لم يُرزق إلا بابنة واحدة تصغر ابن عمها محمود بعامين تقريبًا. وهبها الله مسحة جمال ملفتة، وجسما أظهرها أكبر من سنها؛ لذلك كثر خُطابها من شباب القرية... خشي أبو محمود أن يوافق أخوه على أحدهم، فيخسر الفتاة التي أحبها، وخبر تربيتها. حدّث ابنه محمودا بشأنها. فاعتذر اليافع إلى أبيه، ورجاه أن يؤجّل زواجه حتى ينهي خدمته الإلزامية. لكن الأب أصرّ على رأيه، وخطب ميمونة من أبيها، ثم زوجها ابنه بعد أشهر من الخطبة.

لم ينه محمود عام زواجه الأول حتى وصله كتاب من شُعبة التجنيد لإجراء الفحوصات الطبية المعتادة للمكلفين بالخدمة الإلزامية قبل التحاقهم بها... غادر محمود القرية إلى المدينة، وأجرى الفحوصات المطلوبة التي أظهرت أنه لائق صحيًّا للخدمة الميدانية فغدا جاهزًا للالتحاق بها في أي لحظة.

عاد من المدينة مساء مهمومًا مغمومًا على غير عادته. فسألته زوجته عن سر انزعاجه، وتغيّر مزاجه غير أنه تهرّب، ولم يرد حتى لا يعكر مزاجها، ويسبب له غمًّا وهمًّا، وانفرد بنفسه يحادثها:

- تخيّل يا محمود، أن ميمونة حملت في الأيام الآتية، ثم جاءني كتاب للالتحاق بالخدمة الإلزامية على حين غرة. وجاء فرزي للخطوط الأمامية التي تكثر بها مناوشات مع العدو فخلال إحداها أصابني مكروه أقعدني عن العمل- لا قدر الله- من سيتحمل مصاريف ميمونة والمولود الجديد؟

الإجابة عن هذا التساؤل كانت تؤرقه، فيضرب كفًا بكف حسرةً وندمًا أن وافق أباه على الزواج قبل أن ينهي خدمته الإلزامية.

حاول التخفيف عن نفسه قائلاً:

- أبي - أطال الله عمره- لن يتخلى بمثل هذه الظروف عن أُسرتي بعد الله تعالى.

لكنه فجأة تذكّر أن أباه بالكاد يغطي حاجات أسرته الرئيسة فلا ينبغي أن يحمله مصاريف أخرى تفوق طاقته... انتبه إلى تشاؤمه غير المبرر فقال: (لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم من الشيطان الرجيم). كيف تسلل إلى نفسي وأنساني إيماني؟ وتذكّر قوله تعالى: {قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} سورة التوبة[51] فلم أُرهق نفسي بأوهام مستقبلية لا يعلم حصولها إلا الله؟ سأحاول إبعادها عن ساحة تفكيري.

لكنها للأسف سرعان ما تعاوده لتترك أثرها في نفسه غمًّا، وهمًّا، وألمًا، وتظهره للناس على غير عادته.

فذات مساء عاد من الحقل مُتعبًا فإذ بأمه تنتظره أمام الباب، وعلى وجهها ترتسم علامات البشر والسعادة. فتقول:

- مبارك عليك، يا ولدي، زوجتك حامل، يا كبدي، بعد أشهر-بإذن الله- تصبح أبا. وأمك جدة. ما أجمل هذا اليوم! سأكون سعيدة وأنا أوزّع الحلوى على أبناء الجيران!

تظاهر محمود بالفرح كيلا يضيّع فرحة أمه، تاركًا للأيام أن تفعل فعلها.

وبتعاقب الليل والنهار وضح حمل الزوجة للعيان، لكن بالمقابل اقترب مما كان يخشاه، حيث وصلته من شعبة تجنيده دعوة للالتحاق بالخدمة الإلزامية...

جهّز محمود الحاجات الضرورية لاستخدامه الشخصي، ثم غادر قريته بعد أن ودَّع زوجته، وأسرته، وأصدقاءه، تاركًا خلفه زوجة تحمل في أحشائها مولودًا قد يُحرم حضور ولادته.

ولما وصل الشعبة سلّمته كتاب فرزه إلى (كتيبة الهجّانة)التي تعمل على مراقبة الحركة في البادية، وتتبع المهربين للحد من نشاطهم، والمتسللين الذين يحاولون دخول البلاد بطرق غير شرعية. في الكتيبة أجريت له ولزملائه الجدد دورة تدريبية على كيفية العمل، ثم مُنحوا في نهاية الدورة إجازة لمدة أسبوع.

عاد محمود إلى قريته ليقضي إجازته، والتي انقضت أيامها سريعة، فعاد أدراجه إلى الكتيبة حزينًا مهمومًا مغمومًا؛ لأن زوجته ستضع حملها الأول، وهو بعيد عنها.

وزّع قائد الكتيبة الأفراد الجُدد على الدوريات القائمة لملء شواغرها. فكان نصيب محمود أن يلتحق بدورية صغيرة، مهمتها مراقبة قطاع من البادية للتأكد من هويات عابريه، إضافة إلى تعقّب المهربين إن سلكوه... وبمُضي الأيام تأقلم محمود مع حياته الجديدة، لكنه بقي ينتظر بفارغ الصبر انتهاء الأشهر الستة حتى يعود إلى قريته، ويرى وليده، وليأخذه في حضنه مداعبًا فرحًا... فسرح خياله إلى الماضي القريب، وتذكّر أيام زواجه الأولى، وكم السعادة التي غمرته وزوجته، فقارنها بحياته في بيداء قاحلة لا يسلكها إلا مضطر... ناهيك عما تخبّئ له من مخاطر إن هو تعقّب ودوريته المهربين المعتادين على المواجهة بالسلاح حتى يتخلصوا من الملاحقة، ولكي ينجوا بحياتهم.

هذا الشعور بعد أقل من شهرين تجسّد حقيقة...

ذات يوم خرجت دورية محمود ليلاً تراقب قطاعها. لمح عنصر من الدورية أشباحًا تقترب منهم، فنبَّه زميليه لأخذ الحذر والتواري جيدًا، لكن الأشباح تابعت طريقها حتى اقتربت منهم، وكادت تكشف مكمنهم. فطلب قائد الدورية من الأشباح التوقف، لكنهم عادوا أدراجهم هاربين. فأمر بإطلاق النار بالهواء لإخافتهم. ردَّ المهربون برصاص أكثف حتى يغطوا فرارهم. أصاب طلق ناري محمودًا في صدره. فاستغاث بزميليه اللذين حملاه على عجل إلى المقر، ثم أُسعف إلى أقرب نقطة طبية وهو ينزف دمًا. حاول طبيب النقطة إنقاذه إلا أن نزفه الشديد حال من دون ذلك. فطلب، نقله إلى المستشفى... لكنه فارق الحياة قبل أن يصل إلى المستشفى.

حُمل جثمانُه إلى قريته ليدفن فيها، فبكاه أهلها كثيرًا وبالأخص زوجته التي عاهدته عندما ودعته ألاّ تتزوج من بعده، وإنما ستكرس حياتها لتكفل وليدها القادم. علها تكون من أهل الجنان كما روى سهل بن سعد- رضي الله عنه- قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-:(أنا وكافل اليتيم هكذا) وأشار بالسبابة والوسطى، وفرّج بينهما شيئًا... اقتطعت على نفسها عهدًا، لكنها بمجرد أن انقضى شهر على تشييع زوجها جاء أبوها يعرض عليها وعلى عمها الإقامة في بيته لتكون قريبة من أمها؛ لأنها على أعتاب الوضع... خيّرها عمها بين الإقامة في بيته أو بيت أبيها. فاختارت البقاء في بيت الزوجية لكي يبقى مفتوحًا إحياءً لذكر زوجها، وستربي وليدها في بيت الزوجية وبرعاية جده.

لم يمضِ أكثر من شهرين على وفاة محمود حتى وضعت ميمونة طفلاً أسعد الجميع، استأذنت ميمونة عمها بأن تسميه وحيدًا، وبوضعها شرعًا أنهت عدتها؛ لذلك بدأت تزور قبر زوجها، وعملاً بقول الرسول - عليه الصلاة والسلام- عندما مرَّ بقبرين:(أمّا أنهما ليعذّبان وما يعذّبان في كبير. أمّا أحدهما فكان يمشي بالنميمة وأمّا الآخر فكان لا يستتر

من بوله، قال:فدعا بعسيب رطب، فشقه باثنين، ثم غرس على هذا واحدًا وعلى هذا واحدا، ثم قال: لعلّه أن يخفف عنهما ما لم يبسا). زرعت ميمونة حول القبر الريحان والزهور، وفي كل زيارة للقبر تنظّف ما حوله، وتسقي النبات، ثم تجلس لتقرأ القرآن تقربًا لله وطلبًا منه المغفرة لمحمود.

استمرت ميمونة تزور القبر مساءً كل خميس حتى حلَّ بساحتها حدث - كان متوقعًا- حيث بدأ الخُطَّاب يتقدمون إلى أبيها طالبين يدها. ولما حدثها أبوها رفضت، وضربت بكل الإغراءات والعروض عرض الحائط لتبقى بارة بعهدها لمحمود، ولترعى ولدها الذي قارب الرابعة من العمر، وبدأ يصاحب أمه إلى قبر أبيه، فيجلس ينظر إليها وهي تسقي النبات، وتنزع الحشائش المتطفلة، وتقرأ القرآن. فكلما لمح شفتيها تتحركان ظنها تناجي أباه... ولما بلغ عامه السادس طلب من أمه أن تسمح له بزيارة قبر أبيه كل شهر مرة فمن كثرة مصاحبتها إليه ألف المقبرة وما فيها. كان وحيد إذا زار قبر أبيه يسقي المزروعات، وينظّف ما حوله، ثم يجلس يناجي أباه مقلدًا أمه فيقول:

- بابا، أنا متشوق لرؤيتك. لقد قالوا لي:(إنك ذهبت إلى الجنة عند الله). فمتى ستعود؟ أنا وأمي وجدي وجدتي نحبك كثيرًا. كم مرة طلبوا مني أن أتخلّق بخلقك الحسن. فقالوا: (يا وحيد، أبوك عشق الأرض التي عاش عليها، وضحى من أجلها)، كما سمعتهم يقولون: (إنك شهيد، والشهيد يحبه الله، ويبقيه عنده حيًّا يُرزق)... بابا، لماذا لا تطلب من الله الذي يحبك أن يرجعك إلينا أو يأخذني لأراك؟... بابا، أنا أحب أن تكون قريبًا مني حتى أناديك. مثل زيد ابن الجيران، والأولاد وقت لعبنا في الحارة ومرَّ أحد الآباء يناديه ابنه بابا.

سكت وحيد لحظات، ينتظر رد أبيه، لكنه لم يسمع شيئًا. فظن أن أباه غير راض عنه، فعاد إلى مناجاته:

- بابا، بالله عليك ردّ علي، وقل متى ستعود إلينا، فإن أخبرتني فلن أبوح لأحد؟... بابا لِمَ لا ترد علي؟ ألأنني جئتُ بلا إذن ماما، أم لأنني كذبتُ عليها عندما قلت: أنا ذاهب إلى بيت الجيران لألعب مع زيد؟ أعدك أنني لن أكذب عليها مرة أخرى، وسأسمع كلامها، وأطبقه، ولن أغضبها أبدًا... بابا حبيبي، ما رأيك أن نتعاهد، أنا أطيعها، ولا أزعجها، وأصدقها الكلام، ولا أخرج من البيت إلا بعد موافقتها. وبالمقابل أنت تجيبني عن أسئلتي عندما أجيء معها في زيارتها القادمة. وإذا أحببت التأكد من صدقي فاسألها. أموافق؟... - بالله عليك ريح بالي. لقد تأخرت عنها قد ينشغل بالها علي. سأتركك الآن اسمح لي لأعود حتى أعتذر منها عن تصرفي، وسأقول لها: إنك غير راضٍ عن تصرفي.

عاد وحيد مسرعًا إلى البيت، فوجد أمه تنشر ثيابًا في الشمس. لكنها فاجأته:

- حبيبي وحيد، غسلت ثيابك التي تحبها لتلبسها غدًا عندما تذهب إلى المدرسة.

- أتقولين مدرسة، أي مدرسة؟

- ألم يخبرك صديقك زيد بأنه سيذهب غدًا إلى المدرسة؟

سكت وحيد وهي تنتظر إجابته، لكنه بدأ يفرك يدًا بأخرى. ولاحظت ارتباكه، فقالت:

- وحيد، أنت لم تذهب إلى بيت الجيران. فأين كنت إذًا؟

أسرع وحيد إلى يدها يقبّلها، وقال:

- ماما، صدقتِ لم أذهب إلى بيت زيد، لكنني أرجوك أن تصفحي عني لأنني كذبتك. بالله عليك سامحيني هذه المرة؟

تنهدت بعمق، ونظرت إليه مستغربة أن يكذب عليها. وهي التي تلقنه صباح مساء أن الكذب حرام، بل عليه أن يصدق بكل حرف يقوله،

ولديها استعداد أن تسمعه لكي تجيب عن تساؤلاته، وتوضح له ما استغلق عليه حتى لا ينجر إلى التأليف أو الكذب. نهرته بحدة قائلة:

- وحيدو، لا أود أن أعرف منك شيئًا، ولن أجيبك عن سؤالك حتى تثبت لي أنك لن تعود إلى هذا الفعل. لكن هيّئ نفسك للمدرسة غدًا مع زيد.

قالت هذه الكلمات، ثم استمرت تنشر الثياب. استغل وحيد انشغالها وعدم اكتراثها به، وخرج يركض متوجهًا إلى قبر أبيه. فلما وصل قريبًا من المقبرة لمحه رجل، وهو يدخل إليها. فاستغرب الرجل فعل الطفل، وأحب أن يعرف ماذا سيفعل هذا الطفل في المقبرة. تسلل خلفه متواريا، فسمعه يقول:

- بابا، ذهبتُ حتى أعتذر من ماما، وأعاهدها على الطاعة، لكنها رفضت أن تسمع كلامي، بل هددتني قائلة: (جهّز نفسك يا وحيدو غدا لتذهب مع زيد ابن الجيران إلى المدرسة). بابا حبيبي، أنا اسمي وحيد فلماذا تناديني (وحيدو)؟ بالله عليك الذي تحبه اطلب منها عندما تأتيك ألا تناديني بهذا الاسم، أنا لا أحب إلا اسم وحيد. وأخاف إن سمعها أولاد الجيران أن يغيّروا اسمي إلى وحيدو. بابا حبيبي، أنا اسمي وحيد، والله اسمي وحيد.

وبدأ ينتحب بصوت مسموع فمن يمر قريبًا من سور المقبرة يكاد يسمعه.

اقترب الرجل من وحيد بعد أن تنحنح، وقال:

- ولدي، الأموات لا يجيبون الأحياء. فلم تفعل هذا؟

- عمو، ماما عندما تأتي إلى زيارة أبي تحدثه فيسمعها.

- حبيبي، لا تحدثه أمك بل تقرأ على قبره القرآن.

أخذ الرجل بيد وحيد، وأعاده إلى البيت، حيث التقى أمه وجده، وحدثهما عما رآه.

نظر الجد إلى وحيد وقال:

- جدو، وحيد، لم فعلت هذا؟

أخذ وحيد يبكي، ويقول:

يا جدو جئت لأعتذر من ماما عن خروجي بدون إذنها فلم تسمع لي، فذهبت أشكوها إلى أبي.

أسرعت ميمونة إليه تقبّله، وتقول:

- ولدي، حبيبي، أنا أحبك كثيرًا، وأقبل اعتذارك. لكن بشرط ألّا تخرج إلا بإذني أو بإذن جدك أو جدتك. ما رأيك؟

مسح وحيد دموعه، وقال:

- أنا موافق على شرطك يا ماما. أنا أحبكم كثيرًا.

أراد الرجل أن يذهب ليقضي مهمته إلا أن جدّ وحيد رفض، وأصر عليه أن يبقى حتى يتناول الطعام الغداء معه. ونادى وحيدًا، قائلاً:

- ولدي وحيد، ائت لي بديك من القن غير ديكك.

ذهب وحيد مسرعًا، وجاء بديك. فقال الجد:

- يا وحيد، لاعب الديك أمام ضيفنا كما تلاعب ديكك.

أمسك وحيد بالديك وقال له: (كوكو، كوكو). ثم أطلقه. فهرب الديك فانطلق خلفه ثم أمسكه، وأعاده إلى جده الذي حمله بعيدًا عن عيني وحيد ثم ذبحه. ولما نزف دمه أعاده إلى وحيد، وقال:

- حبيبي وحيد، خذ الديك، ولاعبه ثانية كما فعلت من قبل.

نظر وحيد إلى جده وقال:

- جدو، هذا الديك ميت (نفق) فكيف ألاعبه؟

- حلو يا بطل، يعني إذا قلت له: كوكو لا يسمعك.

- بالتأكيد لا.

- ومثله، البشر لا يجيبوننا نحن - الأحياء- إذا تحدثنا إليهم. فيا ولدي أبوك مات ولن يجيبك وهو عند ربه. فأمك لا تتحدث إليه بل تقرأ له القرآن تقرُبًا لله ليغفر له.

هنا دخلت الأم وقالت:

- وحيد حبيبي، أتحب أن ترى أباك؟

- ماما، ماما، ماذا تقولين؟ هذا كل ما أتمناه بل وأحب أنا أسمعه أيضًا.

- حبيبي سترى صورته، لكنك لن تسمعه.

فجاءت بمحفظة كان وحيد قد تركها عندها قبل التحاقه الأخير بالكتيبة، وأخرجت ظرفًا فيه صورة تظهره على ظهر بعير يسير وسط الصحراء أخذها له زميله خلال فترة التدريب. فأهداها محمود لزوجته. ولم تظهرها من قبل لأحد... أخذها وحيد، وبدأ يقبِّلها ويقول:

- بابا، بابا، أنا أحبك. أصحيح بأنني لن أراك أبدًا؟ أصحيح؟

وأخذ ينتحب حتى أبكى الحضور، وذكّرهم بيوم حمل إليهم جثمان محمود ثم وري الثرى.

قال الجد:

- ما أصعب الفراق على المحبين! ولدي حبيب هكذا الحياة بمُرها وشهدها ستبقى. فلنصبر يا ولدي، فأمثالك على مساحة الوطن كُثر فقدوا آباءهم، ويا ليتهم فقدوهم من أجل الوطن كما فعل أبوك، وإنما لأسباب قد تكون تافهة للغاية يمكن تفاديها، لكن الأنانية والجشع دفع قاتليهم إلى ما حرَّمه الله. فالنفس مصانة ولا يحل لأحد قتلها إلا بالحق. وكم تكون سعيدة إن هي قضت في سبيل حفظ الأوطان والأعراض فذاك شرف عظيم وقتها يكون الموت شرفًا وتاجًا يتركهما المجاهد باعتباره قدوة يُنتهج طريقها، فقد قال تعالى: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُون* فَرِحِينَ

بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} سورة آل عمران [169-170]. فأسأل الله يا ولدي وحيد، أن يكون أبوك من الشهداء لينعم عند ربه بالجِنان التي فيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت.

نظر وحيد إلى جده وتنهد قال:

- رحم الله أبي يا جدو، وأطال في عمرك وعمر جدتي وماما. وألف شكر لك يا عمو فقد كنت السبب لأعرف الكثير، وإن كنت صغيرًا. فأنا بإذن الله ابن شهيد سأجتهد في المدرسة، وأعمل جاهدًا لأحافظ على وطني أسوة بأبي وغيره من بناة الوطن.

(١٠)

الحاسوب الشخصي

أُسرتان بينهما صداقة منذ أكثر من عقدين، شاء القدر أن يتزوج ولداهما الشابان في شهر واحد من العام نفسه... ولما رجع الشابان بعد زواجهما إلى موطن عملهما أحبا أن يسكنا في شقتين متجاورتين إثر نشوء صداقة، ومودة بين العروسين...

بدأ الشابان يبحثان عن ضالتيهما، ومن حُسن الطالع أن أحدهما خلال بحثه قرأ إعلانًا على إحدى العمارات الحديثة عن تأجير شقق للعائلات. أخبر صديقه مباشرةً ثم اتفقا على أن يذهبا مساءً مصحوبين بالعروسين لمطالعة الشقق. فلما طالعوا شقق العمارة أعجبوا بشقتيّ الدور الثالث عشر. فنزل الشابان إلى مكتب العمارَّة وأخبرا مديره برغبتيهما في الاستئجار. طلب منهما بعض الأوراق الثبوتية. أحضراها على عجل، وكتبوا عقدي الإيجار ثم شرعا ينقلان فرشيهما فرحين بمسكنيهما الجديدين.

مضى الأسبوع الأول على مقام الأسرتين في مسكنيهما الجديدين. تمكنتا خلاله من ترتيب فرش الشقتين، ما وفّر لهما الاستقرار النفسي وأزال عنهما ما بقي من تعب... فبدأت الزوجتان تتبادلان الزيارات ما قوّى العلاقة بينهما أكثر.

لم تمض شهور كثيرة على زواج الشابين حتى بدت على إحدى الزوجتين أعراض الحمل ومتاعبه، فتصبرت وتحملت حتى تمخض حملها عن وضعها لطفلة جميلة أسعدتها وزوجها كثيرًا. ثم توافق الزوجان على تسمية الطفلة دلعًا (ميوشة)... هذه القادمة الجديدة حركت الغيرة

لدى الزوجة الجارة، ففكرت بجدّ أن تنجب هي الأخرى. ولما طال انتظارها قلقلت، وشرعت تراجع الأطباء حتى منَّ الله عليها بالحمل. فبمجرد أن أبلغها طبيبها بأنها حامل سقطت مغشيًا عليها من هول المفاجأة، ولم تكد تصدق ما تسمع. شاع خبر حملها بين المعارف والجيران الذين فرحوا لفرحها، وبدؤوا منتظرين القادم الجديد.

مضت شهور الحمل ومتاعبه. وجاء اليوم الموعود، ففيه وضعت هي الأخرى طفلة سمتها دلعًا (توتي).

زيارات الجارتين على الرغم من هذه الظروف لم تنقطع، بل قلَّت، لكن المستجد أن الزيارات الحديثة غدت بصحبة الطفلتين اللتين نورتا الشقتين، وأفاضتا عليهما حياة، وبهجة لم تكن من قبل. فالطفلتان كانتا تكبران، ويكبر معهما تعلّق إحداهما بالأخرى. فبمجرد أن تعودا من بيت جدتيهما مساءً تلتقيان لتلعبا معًا حتى الثامنة أو أكثر.

فكَّر أبو ميوشة في طريقة يستغل بها توافق الطفلتين، ويسخّره بما ينفعهما، ويخفف من حركتيهما داخل الشقة بأن يشترى حاسوبًا لابنته، ثم يعلّمها على استخدامه وبدورها ستشرك توتي في اللعب... اشترى أبو ميوشة حاسوبًا لابنته، وبدأ يعلّمها على مبادئ استخداماته الأولية. فأبدت استعدادًا واستجابة لا نظير لهما ما سهل على أبيها مهمة تعليمها. فإذا جاءت توتي أشركتها معها باللعب على الحاسوب بذلك زاد تعلق توتي بميوشة حتى غدت ترفض الذهاب إلى شقة أهلها ما يحرج أبويها... هذا الموشح شبه اليومي دفع أبا توتي إلى شراء حاسوب لها، ثم علَّمها على مبادئه لتتمكن من مجاراة صديقتها ميوشة... أكثر ما كان يسعد توتي أن تتبادل مع ميوشة الحاسوب ! لتبدأا المنافسة في استعراض الألعاب.

في هذه الفترة اقتربت ميوشة من سن الرابعة فسجلها أبوها في روضة أجنبية كي تتعلم الإنجليزية منذ سن مبكرة. ولما بدأت تذهب إلى

الروضة قلت زيارات توتي ما أشعرها بفراغ كبير. فإذا أحبت زيارة ميوشة رابطت أمام باب شقتهم منتظرة مجيء أهل ميوشة فإن فتحوا بابهم أسرعت إلى حاسوبها ثم حملته وذهبت لتلعب مع ميوشة، والتي تقص عليها ما جرى في يومها الروضوي، وعن الألعاب الكثيرة التي تلعبها في الروضة... تتنهد توتي وتتمنى أن تلعب مع أطفال الروضة. فإذا عادت إلى البيت طلبت من أبيها أن يسمح لها بالذهاب إلى الروضة لتلعب مع الأطفال... يضحك الأب. فتبدأ الأم تصبّرها وتقول:

- حبيبتي توتي أنت أصغر من ميوشة. فالروضة لا تسمح لأمثالك بدخولها. تأكدي بأن بابا مجرد أن تصلي سن الروضة سيسجلك فيها حتى تتعلمي، وتلعبي كما يلعب أطفال الروضة.

اقتربت توتي من سن الرابعة. فسجلها أبوها في روضة أجنبية استعدادًا للعام القادم، لكنها ستدخل الروضة وهي تعرف بعضًا من مبادئ التحدث بالإنجليزية؛ فأمها كانت حريصة على أن تعلمها النطق بالإنجليزية والعربية معًا ما ملّكها ثروة لغوية بالإنجليزية ليست بأقل مما اكتسبته ميوشة في الروضة، والتي أنهت عامها الثاني بتسلم شهادة تخرجها في حفل أقامته الروضة للخريجات. حضره أولياء أمورهن.

بعد انتهاء الحفل بدأت العطلة الصيفية. وعادت ميوشي إلى سابق عهدها في الذهاب صباحًا إلى بيت جدتها. ولا تعود إلا مساءً، حيث تلتقي وتوتي مجرد رجوعها من بيت جدتها هي الأخرى. تبدأان تستعرضان الألعاب المحملة على الحاسوب. فيتخلل استعراضهما للألعاب حوار باللغة الإنجليزية تحاول إحداهما إقناع الأخرى بالكف عن البحث والبدء بمشاهدة ما اختارته.

ذات مساء رجعت ميوشة من بيت جدتها متأخرة. انتظرت مجيء توتي لتلعبا. فإذ بأبيها يفاجئها قائلاً:

- مبارك، ميوشتي، اليوم سجلتك في مدرسة ابتدائية ثنائية اللغة، كيف بابا معك؟

نظرت إليه متعجبة وقالت:

- تقول مدرسة ابتدائية. فلم لا أعود إلى روضتي، فهناك صديقاتي؟

تبسم في وجهها... وقال:

- لا يصح يا ابنتي، أنت بعد أيام ستذهبين إلى نوع آخر من المدارس. أما الروضة فهي للأصغر سنًا منك كتوتي. بالمناسبة أبشرك بأنك لن تقفي صباحًا وحيدة بانتظار سيارة المدرسة فتوتي ستنتظر سيارة الروضة هي الأخرى. ما رأيك يا حلوتي؟

- بابا، يعني عطلتنا انتهت.

- لا، بل بقي على انتهائها ثلاثة أسابيع.

- لقد مرت أيام العطلة بسرعة علينا.

- هكذا الأيام. أغمضي عينيك ثم افتحيهما فستجدين نفسك في المدارس المتوسطة.

- ... وبعد في متوسطة.

- وبعدها يا ميوشتي ثانوية وجامعة. فالطريق مازال طويلاً حتى تحققي رغبتك.

أنهت أم ميوشة إعداد مائدة العشاء. وتوجهت إلى الصالة لتقول:

- مبارك تسجيلك يا ميوشة في الصف الأول.

ونظرت إلى زوجها قائلة:

- سبحان الله! كبَّرتنا ميوشة معها.

ضحك الجميع ثم انتقلوا إلى المائدة لتناول طعام العشاء. وإذ بالباب يقرع. فتحته ميوشة لتدخل توتي. سلَّمت فدعاها عمها إلى الطعام،

لكنها اعتذرت. وبمجرد أن أنهت ميوشي طعامها غسلّت يديها وفمها، ثم بدأتا تلعبان كعادتهما.

انقضت أيام العطلة المتبقية وبدأ العام الدراسي الجديد، لكن الزيارات بين توتي وميوشة خفت عما قبل. وبتوالي الأيام والتقدم الدراسي كانت الصداقة بين الطفلتين تنمو، وحوارهما يتغير، فلم تعد موضوعاته مقصورة على الألعاب والقصص وغيرهما، بل تنوع وشمل ما ترغبان القيام به في عطلة نهاية الأسبوع. فإن اتفقتا على زيارة مكان ما أو الخروج إلى البحر سعت كلتاهما إلى إقناع أبويهما برغبتهما. فأيهما نجحت أولاً سارعت إلى إبلاغ صديقتها.

لم يكن التوافق بالرأي أو في الحوار بينهما دائمًا، فقد يشهد اختلافًا بوجهة النظر، فإذا تعذُر على إحداهما إقناع الأخرى برأيها رفعت صوتها، فيحتدم نقاشهما ويعلو صوتاهما.

ذات يوم سمع أبو ميوشة فصلاً من حوارهما، وإذ بصوتيهما يعلوان ثم يعلوان أكثر فخشي عليهما، ولكي يجنبهما العودة إلى المشاحنات غير المفيدة؛ تدخل واقترح عليهما أن تختار كل واحدة منهما موضوعًا كقصة أو موضوع ثقافي أو لعبة مسلية أو برنامج في الحاسوب مسبقًا، وفي اللقاء التالي بينهما تعرض اختيارها على الأخرى وهكذا بالتناوب.

قبلتا مقترحه وشكرتاه له، ثم وعدتاه بدء العمل.

لكن رضاهما بالمقترح شكل لهما تحديًا كبيرًا في إثبات الذات، فكلتاهما بدأت تبحث عن موضوع مناسب لتكون السباقة بالوصول إلى قصة مناسبة أو لعبة أو برنامج يحظى بإعجاب الأخرى؛ لذلك كان جُل اهتمامهما هو التركيز على البحث لاختيار الأفضل، ما شغل وقتهما، وخفَّف تناكفهما. فمن منهما ستكشف لنا اختيارها أولاً ؟

(١١)

بـائعـة الخبـز

لم يعد لقاء الصديقتين لمجرد اللعب، وقضاء وقت الفراغ بعد مقترح أبي ميوشة، بل صار ذا هدف محدد، تعرض فيه إحداهما ما اختارته سابقًا لتحكم الأخرى عليه؛ فحرصت كلتاها على أن يكون اختيارها هو الأفضل لينال إعجاب الأخرى، وكل من يشاركهما في سماعه أو رؤية مشاهده عبر شاشة الحاسوب... هذا التحدي حرَّك فيهما الجدية، وإن كانتا صغيرتين، فبمجرد عودتهما من بيتي جدتيهما تبدأ الواحدة منهما البحث والتقصي لاختيار موضوعها، لكن القدر شاء لميوشة أن تكون هي الأسبق، فمن خلال استعراضها للبرامج على الشاشة الصغيرة لفتت انتباهها جدة تقصّ على حفيدتها فترة من حياتها، فأحبت أن تسمع حديثها لحفيدتها التي كانت تصغي إليه باهتمام واستمتاع، فعيناها تسمرتا في وجه الجدة ما جذب ميوشة فتابعت الحديث حتى نهايته. فوقع في قلبها، وأيقنت أنه مناسب...

أبلغت توتي بأنها اختارت موضوعًا؛ لذلك تدعوها إلى الحضور غدًا لكي تستعرضا مشاهده عبر الشاشة معًا. هذا الخبر ألهب الحماسة، والتحدي أكثر في نفس توتي، فها هي ميوشة نجحت في الاختيار قبلها، لكن ليس في اليد حيلة إلا أن تذهب.

في مساء اليوم التالي ذهبت توتي إلى وميوشة. وبدأتا تشاهدان الأحداث عبر الشاشة الصغيرة، حيث الجدة تقول لحفيدتها:

(حبيبتي ميري، عندما كنت صغيرة في مثل سنك. سكن إلى جوارنا أسرة تبدو عليها رقة الحال، لها ولد وبنت. لم يتجاوز أكبرهما العاشرة

من العمر. كان رب الأسرة يلازم فراش المرض. فلم يمض على سكنهم بجوارنا أكثر من بضعة شهور حتى توفي رب الأسرة، ولم يترك وراءه ما يكفي نفقات أسرته بعد وفاته... عرف الجيران وضع الأسرة المادي، فبدؤوا في مساعدتها على إدارة شؤون الحياة اليومية... هذه الحال لم ترق المرأة التي رفضت أن تعيش مع ابنها وابنتها عالة على الآخرين، تنتظر إحسانهم اليومي، بل دفعتها عفتها إلى البحث عن عمل شريف يكفل لأسرتها حياة كريمة بعيدة عن نظرة الرأفة والشفقة. فجاءت المرأة ذات يوم إلى أمي، وطلبت منها أن تحدث أبي علَّه يجد لها عملاً. كان أبي وقتها يملك مخبزًا. فلما أخبرته أمي أحب أن يساعد الأسرة، فقال:

- يا أم ليسا أعرضي عليها العمل معي في بيع الخبز. أعطيها كل يوم كمية منه، لتبيعها على جيران المخبز، وسأترك لها جُزءًا من الربح. وسأبلّغ الجيران بأنها من قِبلي ليشتروا منها. فإن ناسبها عرضي فلتأتني مبكرة. في اليوم التالي ذهبت أمي إلى المرأة، وعرضت عليها ما قاله أبي. فوافقت مباشرة، وشكرت لهما، ثم طلبت من أمي عنوان المخبز.

في صبيحة اليوم التالي أيقظت المرأة ابنتها باكرا وقالت لها:

- يابنتي اهتمي بأخيكِ إن استيقظ. فأنا سأغيب عنكما بعض الوقت فلا تقلقي.

ثم قصدت المخبز. فلما وصلته رحَّب بها أبي، فبدت عليها علامات الحياء والخجل.. شرح لها كيفية العمل، وحدَّد لها مبيع الرغيف الواحد، ثم أعطاها كمية من الخبز لتبيعها. لفَّته بقطعة قماش، ثم حملته على رأسها وغادرت المخبز. وشرعت تطوف على جيران المخبز تعرض عليهم بضاعتها، فمنهم من اشترى، ومنهم من وعدها بالشراء مستقبلاً. تابعت المرأة طوافها على البيوت حتى نفد خبزها، فعادت إلى بيتها منهكة، لكنها مسرورة، حيث بدأت طريقًا ستجنبها نظرة

عطف الآخرين، وهم يمدون لها يد العون. ومثّلت مكمن سعادتها على الرغم من تجولها لساعات على البيوت، وتركها لابنها وابنتها الصغيرين لوحدهما. فضلاً عن عيون الناس التي كانت ترمقها في الحارات... لكن سلواها عزة نفس، ومعاملة الطيبين من الزبائن الذين لم يكتفوا بدفع قيمة الخبز، بل زادوا عليها، وبعضهم أرشدها إلى زبائن آخرين ما مكّنها مستقبلاً من دفع مصاريفها كلها، وشراء عربة تحمل عليها خبزها الذي زاد عدده.

لم يمض عامان على عملها حتى تضاعف زبائنها، ولم تعد قادرة على تلبية طلباتهم في فترة الصباح. ففكرت بمن يساعدها. لفت نظرها فتاة كانت تتسول يوميًا في الحارات، فأحبت أن تنتشلها من التسول. فعرضت على الفتاة أن توزع معها الخبز مقابل أجر يومي... ترددت الفتاة، لكن بائعة الخبر أقنعتها بأن تجرب. اتفقتا على الأجر وبدء العمل في صبيحة اليوم التالي. حضرت الفتاة ورافقت بائعة الخبز لتعرّفها للزبائن، وتعلّمها طريقة التعامل، ثم حددت لها بعض الأحياء القريبة من المخبز، وأخذت لنفسها الأحياء الأبعد.

كان كل يوم يمر يرفع من خطها البياني بثقتها بنفسها ويشعر ها بأنها نجحت في عملها، حيث تمكنت من تعليم ولدها وابنتها حتى تخرجا من الجامعة فطلبا إليها أن تترك بيع الخبز، لكنها رفضت بل اشترت مخبزًا وأصبحت تبيع خبز ها الخاص بها حتى اتخذها الكثيرون ممن يطمح بالنجاح قدوة.

شاع صيتها في المنطقة فقصد الكثيرون مخبزها من أنحاء المدينة ليشتروا خبزها الخاص. وهناك من قصده ليعرفها من قُرب.

(ما رأيك يا ميري)؟

سكتت الجدة فجأة، ومسحت من عينها دمعة لم تعرف ميري سببها، لكنها استشعرت بأن القصة انتهت، كم تمنت لو أنها لم تنته بعد.

لم تكن توتي أقل سعادة من ميري وهي تطالع وميوشة أحداث القصة. فما أن سكتت الجدة عن الحديث حتى أسرعت توتي إلى الحاسوب، وقالت:

- بالله عليك أعيدي علي بعض المشاهد لأطالعها. فأنا لم أر من قبل امرأة تأتي لتبيعنا خبزًا.

ضحكت ميوشة، وقالت:

- ولا أنا، فسأسأل بابا لماذا لا نرى بائعة تأتي لتبيعنا خبزًا.

اتفقتا أن تسأل كل منهما أباها، لكن ميوشة أضافت:

- أنا سمعت كلمات من الجدة لم أفهم معناها. فسأسأل بابا عنها من مثل (رقة الحال - رب الأسرة - التسول انتشلت...).

انزعجت توتي من انتهاء المشاهد، وتمنت لو طال العرض أكثر، وقالت:

- وأنا سأسأل بابا عن كلمات لم أفهمها أيضًا (يطمح، خط بياني، زبائن، عفة).

- تمام يا توتي، إذًا في يوم الغد نتبادل معاني الكلمات حتى نفهم القصة أكثر.

- بالله عليك أعيدي علي بعض المشاهد.

رفضت ميوشة؛ لأن الوقت متأخر، ما أزعج توتي، وحفزها على أن تُحمّل المشاهد على حاسوبها أولاً، ثم تبحث عن قصة شيقة لتثبت كفاءتها. فأسرعت إلى حاسوبها حملته، وغادرت...

(١٢)

الـسـائق

قرعت توتي باب الشقة بقوة. ولما فتحت أمها فوجئت بها، وقالت:

- غريب... توتي، ماذا جرى حتى تأتي مبكرة هذا اليوم؟

- ماما، ماما، تعالي، انظري مشاهد قصة بائعة الخبز. كم هي جميلة!

جلست الأم وتوتي أمام الحاسوب تطالعان المشاهد التي تمر أمامهما من قصة بائعة الخبز. وكلما لفت نظر توتي تصرف أو حركة غير مفهومة أو كلمة مثل (يطمح، زبائن، عفة...) سألت أمها مستوضحة... حتى انتهت المشاهد.

سرَّت الأم كثيرًا بمشاهد القصة، وأثنت على اختيار ميوشة، كما شكرت لتوتي إشراكها في مشاهدة قصة المرأة التي كرَّست حياتها لتحقيق هدفها على الرغم من كل المصاعب التي وقفت في وجهها. وما أكثرها!
هنا خطر للأم أن تتأكد من استيعاب ابنتها لأحداث القصة فقالت:

- توتي حبيبتي، الآن انتهى عرض المشاهد. هل تعرفين ماذا اشترت بائعة الخبز؟

- نعم، اشترت مخبزًا، لكن أماه ثمن المخبز كبير. فمن أين جاءت به المرأة؟

- حقًا يا حلوتي، ثمنه كبير مقارنة بعملها البسيط، إلا أنها جمعته من بيعها للخبز لفترة طويلة. لم تمل، بل صبرت على التعب، وتحملت البرد، ونظرات الناس إليها بل اجتهدت اجتهادًا فريدًا كان سر نجاحها في تحقيق هدفها، إضافة إلى حُب الناس، وإقبالهم على الشراء منها.

- أماه تقولين: سِرّ نجاحها، أللنجاح سر؟

- توتي، أتحبين بائعة الخبز أم تحبين النجاح؟

- نعم أحب النجاح، وأحب بائعة الخبز، كما أحبها الناس.

- لماذا تحبينها؟

- أحبها؛ لأنها ؛ تحملت كثيرًا، وعملت بنشاط وعاشت من كسبها.

- ما شاء الله يا توتي، أنت إذًا تحبين الصبر والحرص على نجاح العمل. ما تحبينه هو جزء من سر النجاح... فإن تحليت بهذه القيم نجحتِ وأحبك من عرفك. فدورك الآن أن تبحثي عن قصة أو لعبة تنال إعجاب ميوشة. فابدئي بنيتي.

جلست توتي تقلّب البرامج المحملة على الحاسوب على الرغم من فوات ساعة نومها... وكلما قرأت اسمًا فرحت به، لكنها لم تقف عنده بل تابعت تصفحها علَّها تجد الأفضل.. قلّبت وقلّبت في البرامج على أمل أن تجد قصة أو لعبة تكون شيقة، جذابة. طال بحثها حتى كادت تيأس من كثرة ما مرَّ أمامها من مشاهد، ومع ذلك استمرت في البحث؛ فأمامها تحد لتثبت لميوشة قدرتها على الوصول إلى قصص وألعاب شائقة.

تابعت التصفح، فلفت نظرها منظر: (سائق تكسي أجرة يسير في شارع المدينة بسرعة غير معهودة من قائدي مركبات الأجرة). فأحبت كشف سر سرعته عساه يلبي طموحها، ويكون موضوعها غدًا.

تابعت مشهد السيارة المسرعة أولاً فأولا، والتي توقفت فجأة أمام مخفر للشرطة. نزل منها السائق مسرعًا، ثم فتح الباب الخلفي، سحب من على المقعد الخلفي حقيبة دبلوماسية... زادت دهشة توتي، وقالت: حقًا هذه تصلح لتكون غدًا موضوعي، فسوف أتابع السائق لأرى ما سر سرعته، وما سر الحقيبة التي أنزلها معه إلى المخفر.

تنهدت الصعداء، فقد اقتربت من اختيار موضوع مناسب للغد. فسمعت أمها تناديها:

- توتي لقد تأخرت عن موعد نومك.

- ماما، لا أرغب في النوم، لأنني أتابع مشاهد السائق الذي اقترب الحين من باب المخفر.

كانت تزداد نبضات قلبها كلما خطا السائق خطوة نحو المخفر. فعيناها تسمرتا بالحاسوب تطالع السائق الذي توقف عند حارس الباب الخارجي للمخفر، ثم طلب السماح بالدخول لكي يقابل رئيس المخفر، لكن الشرطي رفض، وقال له:

- ماذا في حقيبتك؟ افتحها أولاً.

- لا أستطيع فتحها يا سيدي وليفتحها رئيس المخفر بنفسه.

تواردت شكوك لدى الحارس بأن يكون في الحقيبة ما لا تحمد عقباه. فاحتار. كيف يتصرف. فإن أدخله يخشى العواقب، وإن تركه فلا يصح بعدما شكّ بأمره. فكّر، وفكّر ثم ارتأى أن الأسلم أن يتصل بالمسؤول عن الحراسة ليأتيه. فقال للسائق:

- انتظر. اتصل بالمسؤول، وأخبره بشأن الرجل.

فجاء مسرعًا ومعه شرطيان آخران. سأل المسؤول السائق مباشرةً:

- ما الذي تضعه في الحقيبة أيها الرجل؟

- سيدي، لا أعرف ما في الحقيبة فمن فضلك اسمح لي بمقابلة رئيس المخفر وستعرف ما في الحقيبة.

- غريب أنت يا رجل. تحمل حقيبة، ولا تعرف ما فيها. قل لي ماذا تعمل؟

- سيدي، أعمل سائق أجرة جائلاً.

- من أين جئت بهذه الحقيبة؟

- يا سيدي، اسمح لي أن أقابل رئيس المخفر، وستعرف.

- لن أسمح لك بالدخول. أيها الشرطيان أمسكا به ثم أدخلاه إلى النظارة كي نحقق معه، ونعرف من أين سرق الحقيبة؟

هذا الكلام آذى السائق كثيرًا، فرفع صوته قائلاً:

- للأسف أن تجعل أمانتي وصدقي في نظركم مني سارقًا. لا، يا سيدي، وألف لا، أنا لست بسارق.

أخذ يرددها بصوت مرتفع حتى سمعها كل من في قاعة المخفر. فجاؤوا مسرعين ما أحدث ضجة وصلت إلى رئيس المخفر الذي اتصل بالمسؤول عن القاعة لمعرفة ما يحصل. أجابه الضابط:

- سيدي أحد المارَّة تهجم على شرطيي المخفر.

نزل رئيس المخفر مسرعًا ليستطلع الأمر، فوجد جمعًا من الشرطة والمراجعين تتجمهر أمام الحراسة الخارجية فسأل: ما الأمر؟

أجابه رئيس الحراسة:

- سيدي هذا الرجل مُصرّ على مقابلتك، ولما طلبنا منه فتح الحقيبة رفض، كما رفض أن يسلمها لنا، بل أصرّ على مقابلتك.

توجَّه رئيس المخفر للرجل قائلاً:

أصحيح أنك تريد مقابلتي، لماذا؟

تنهد الرجل، وهدأ بعض الشيء وقال:

- نعم سيدي، أريد مقابلتك بالذات لأمر خاص لا يمكنني أن أبوح به لغيرك.

طلب رئيس المخفر من الشرطيين ترك الرجل، ومن مسؤول الحراسة أن يلحق به مع السائق إلى مكتبه، حيث أجلسه على كرسي. وطلب

له مشروبًا، ثم بدأ يخفف من روعه:

- خذ راحتك أولاً، ثم قص علي ما تريد.

في هذه الأثناء دخل المحقق برفقة أحد الكتبة. أخذ السائق نفسًا عميقًا وقال:

- شكري لك سيدي، أنا آسف قد سببت لك إزعاجًا. فالقصة يا سيدي، أنني أعمل سائق أجرة جوال. منذ ثلاث ساعات ركب معي رجل كانت معه هذه الحقيبة. وضعها على المقعد الخلفي. وبدأ يتصل طيلة المسافة التي ركبها معي من وسط المدينة حتى نزل قريبًا من المخفر. تابعت عملي في نقل الركاب حتى انتهى دوامي، ثم توجهت إلى بيتي، تفقدت السيارة فلمحت الحقيبة، تذكرت الرجل الذي وضعها على المقعد بأنه نزل قرب المخفر. فجئت إليكم لعلكم تجدون طريقة تعيدون له حقيبته. يا سيدي، خلصني منها.

نظر رئيس المخفر إلى السائق بعينين مملوءتين بالتقدير والإكبار وقال:

- لك تقديرنا؛ فأنت محترم. يعجز الكلام عن إيفائك حقك... أحاولت فتح الحقيبة؟

- لا، يا سيدي، كيف أفتحها وليست لي.

- يا الله كم أنت فاضل! لذلك أكرر شكري وتقديري لجنابك.

نادى رئيس المخفر المسؤول عن الحراسة وقال له:

- افتح الحقيبة بحضور السائق.

نظر إليها الرجل، ثم قال:

- سيدي للحقيبة رقم سري يصعب فتحها إلا بتعطيل القفل.

- حسنًا، خذ رقم هاتف السائق وبياناته...

ثم توجه رئيس المخفر إلى السائق قائلاً:

- أيها الأمين، شكرًا لك من كل عناصر المخفر. اذهب الآن ومجرد أن نعرف صاحب الحقيبة سنتصل بك لنجمعك معه.

غادر السائق المخفر مرتاح الضمير؛ لأنه أوصل الأمانة.

أما رئيس المخفر فقد طلب من رئيس الديوان أن يضع صورة الحقيبة على موقع المخفر عبر وسائل التواصل، وأن يتواصل مع صحيفة المدينة لتضع إعلانًا عن وجود حقيبة دبلوماسية في المخفر.

كانت توتي تتابع المَشَاهد راغبة في معرفة النتيجة، لكن النوم سرقها فنامت على الحاسوب.

جاءت أمها. أطفات الحاسوب، وحملتها إلى سريرها لتتابع نومها.

(١٣)

الحقيبة

نامت توتي نومًا عميقًا. لم تستيقظ إلا صباحًا على صوت أمها التي جاءت لإيقاظها لتذهب إلى الروضة. بقيت طيلة نهارها تفكر بمصير الحقيبة، أتعرّف المخفر إلى صاحبها أم لا؟ لكن همها الأول والأخير ألّا يكون اختيارها للحدث من دون مستوى قصة بائعة الخبز.

فلما عادت مساءً من بيت جدتها. دخلت مسرعة إلى غرفتها، أخذت حاسوبها، فتحته، قلّبت المشاهد حتى وصلت إلى مشهد السيارة تقف قُرب المخفر. نزل منها رجل تتبّعت مشهده وهو يسير على الرصيف ثم يتوقف فجأة فيبدو أنه تذكر الحقيبة ضرب كفًا بكف، وأخذ ينظر يمينًا وشمالاً وبكل الاتجاهات عساه ير ى السيارة التي أنزلته وانطلقت مسرعة.. هيهات، هيهات لقد سبق السيف العذل. ماذا يفعل المسكين في هذا الموقف المحرج؟

بدا عليه التردد واضحًا كمن يلفّ حول نفسه. أيذهب إلى المخفر القريب أم يرجع إلى الشركة؟ لم يهتد؛ إنه يتخبط من هول المصيبة التي وقع فيها فلا يدري ماذا يعمل؟ لحظات عصيبة مَرَّ بها، لكنه حاول استرجاع توازنه ليصل إلى حل ما.

بعد تفكير وتفكير قرر أن يتواصل مع المسؤول عنه في الشركة ليخبره بالحدث علَّه يساعده أو ينصحه لعمل ما، اتصل بالرجل وأخبره ورجاه ألا يتأخر عليه بالرد فهو سينتظر في مكانه علَّ السائق يرى الحقيبة فيعود.

بعد لحظات وبكل برود أعصاب طلب المسؤول عنه منه أن يرجع إلى مقر الفرع ثم يقدم له تقريرًا عما حدث حتى يدخله إلى مدير الفرع للعلم.

هذا الرد آلم الرجل فكأنه ماء بارد أهرق على رأسه. انكفأ المسكين وراء. ثم أوقف سيارة أجرة أوصلته إلى مقر الشركة. هناك لم يمهله المسؤول ليكتب تقريره، ولم يسمع منه كلمة، بل أخذ بيده مباشرة، واستأذن من السكرتيرة بالدخول على مدير الفرع. أخبر المسؤول مدير الفرع بالحدث بإيجاز. فطلب مدير الفرع من المسؤول الاتصال مباشرة بصحيفة المدنية اليومية لتصدّر لهم إعلانًا يتضمن فقد شركتهم لحقيبة دبلوماسية في سيارة أجرة عامة، وبأن الشركة رصدت للسائق إن أعاد الحقيبة لفرع الشركة مكافأة مادية مجزية. كما طلب ممن فقد الحقيبة أن يقدم له تقريرًا مفصلاً عن الحدث.

كانت توتي تتابع المَشاهد عبر الشاشة بشوق. همّها أن تعرف ماذا جرى في المخفر، حيث طلب رئيسه من رئيس الديوان تصوير الحقيبة وتنزيلها على موقع المخفر، وأن يتواصل مع الصحيفة اليومية في المدنية لتنزل إعلانًا عن وجود حقيبة دبلوماسية مفقودة لدى المخفر. فعلى فاقدها مراجعة المخفر، مصحوبًا بما يثبت ملكيته للحقيبة.

لم يمض على طلب الشركة من الصحيفة أن تصدر لها إعلانًا عن فقد الحقيبة وقت طويل حتى وصل طلب من المخفر للصحيفة بأن تصدّر إعلانًا عن وجود حقيبة لديه. هذان الطلبان المتقاطعان شكلا مفاجأة لموظف الاستقبال. فارتأى قبل تحويلهما إلى قسم الإعلانات أن يعرضهما على رئيس التحرير فقد يكون له فيهما رأي آخر.

دخل موظف الاستقبال على رئيس التحرير، وعرض عليه مضمون الطلبين. شكره لدقته ونباهته. ثم استدعى رئيس التحرير سكرتيره،

وطلب إليه أن يتواصل مع الشركة ليخبرها بأن الحقيبة موجودة لدى جهة حكومية معروفة للصحيفة، وبمجرد التنسيق مع تلك الجهة سنخبركم بالتفصيلات.

قام رئيس التحرير بالاتصال برئيس المخفر وأبلغه باسم الشركة التي فقدت الحقيبة ورقم هاتفها، وأن الصحيفة مستعدة لتغطية إجراءات تسليم الحقيبة للشركة.

كان الوقت متأخرًا ليلاً، ما ضيّع على رئيس المخفر رغبته في أن يزف للشركة خبر وجود الحقيبة في المخفر.

في صبيحة اليوم التالي استدعى رئيس المخفر رئيس الديوان لينسقا معًا خطة تسليم الحقيبة لمندوب الشركة أمام جمهور، كالسائق وموفد الصحيفة وغيرهما. حدَّد رئيس المخفر الساعة العاشرة من صباح الغد للتسليم. ثم تقاسم ورئيس الديوان مهمة تنفيذ الخطة من إبلاغ وما شابه.

في اليوم الموعود حضر المدعوون إلى المخفر جميعهم، وعلى رأسهم السائق، حيث بدأت وقائع تسليم الحقيبة لمندوب الشركة بكلمة لرئيس المخفر شكر من خلالها للحضور تلبيتهم دعوة المخفر، وخص السائق بالاسم؛ لأنه أعاد البسمة لمن فقد الحقيبة، كما أثنى على فطنته، إذ قصد المخفر الجهة الصحيحة مباشرة. وطلب منه أن يصفح عن مسؤول الحراسة وما بدر منه بحقه. كما دعا الجميع إلى التعاون مع المخفر حفاظًا على أمن السكان وراحتهم بالمنطقة، ودعا مدير فرع الشركة ليقدم دليلا على صدق إدعاء الشركة لملكية الحقيبة.

بدأ مدير الفرع حديثه مقدمًا الشكر لرئيس المخفر وعناصره لحرصهم الشديد على الأمن والأمان. وشكر الحضور جميعهم، ثم أشاد بدور صحفية المدنية في الوصول إلى الحقيبة. كما توجه بالشكر الخاص

إلى السائق الإنسان، عارضًا عليه العمل معهم في الشركة مع سيارته بأجر شهري يفوق المبلغ الذي يجمعه. لكن السائق شكر المدير واعتذر عن قبول العرض، فقد اعتاد على العمل الحُرّ فالسيارة مِلكه الخاص؛ وقد تعوّد أن يخرج صباحًا متى شاء، ويعود مساء متى شاء.

عندئذٍ رجاه المدير أن يتقبل من الشركة مبلغا رمزيا ليشتري به هدية يرغب فيها، اعتذر السائق ثانية عن قبول المبلغ. فضجت القاعة بالتصفيق للحظات إقرارًا من الحضور بسمو هذا الرجل القدوة... ما دفع توتي لتشاركهم التصفيق.

طلب مدير الفرع من الموظف الذي فقد الحقيبة أن يتقدم أمام الحضور ليفتحها لأنه يحفظ رقمها السري. أقبل الرجل محرجًا، والعرق يتصبب من جبينه. شكر للجميع جهودهم، ثم أدخل الأرقام السرية فانفتحت الحقيبة، وانكشف للحضور ما في داخلها من ربط النقود التي سجلت بكشف لتودع في البنك كرواتب للموظفين.

كان مندوب صحيفة المدينة ومصورها يتابعان الوقائع أولاً فأولا. ففي اليوم التالي خرجت الصحيفة بمقال مطول عن وقائع الحدث وختمته برقم هاتف السائق.

في المقابل طلب رئيس المخفر إلى مسؤول موقع المخفر أن ينزل صورة السائق على الموقع ويكتب تحتها: (رجل أعاد البسمة للكثيرين).

الحفاوة التي نالها السائق لفتت نظر جمهور المدينة. فشرع كثير منهم يتصلون به حتى يوصلهم إلى أعمالهم، حتى غدا عمله مقصورًا على الطلبات فسجَّل على سيارته(أُجرة تحت الطلب).

كثُر زبائنه، ولما عجز عن تلبية طلباتهم اشترى سيارة أخرى وشغَّل سائقًا عليها، ومع ذلك لم يستطيعا تلبية الطلبات، فاضطر إلى شراء سيارة ثانية، فبدأت أحواله تتحسن أكثر، ففتح مكتبًا صغيرًا أداره بنفسه، حيث يتلقى الطلبات، ويوجه السائقين لتلبيتها.

أخذت توتي نفسًا عميقًا وهي تتابع المشهد الأخير للسائق الجالس وراء مكتبه وبيده هاتفه يبلغ أحد السائقين عنوانًا حتى يتوجه إليه).

بهذا المشهد انتهت المشاهد. فتمنت توتي ألا يكون تأثير قصة السائق في نفس ميوشة بأقل من بائعة الخبز. ففي اليوم التالي مجرد أن رجعت من بيت جدتها، وتأكدت من وجود ميوشة حملت حاسوبها وذهبت إليها ثم عرضت مشاهد السائق أمامها حتى آخر مشهد من الحدث. نظرت إلى ميوشة، وقالت:

- ما رأيك باختياري؟

لم تجبها عن سؤالها، بل تركتها وركضت إلى أمها، ما أغاظ توتي، فاغرورقت عيناها بالدموع وتغيرت ملامح وجهها... فتدخلت أم ميوشة. قبَّلت توتي، وقالت:

- توتي قصتك جميلة مثلك، لكن صديقتك أرادت أن تمزح معك لترى ردة فعلك.

تقدمت ميوشة من توتي ضمتها ثم قبَّلتها، وقالت:

- فعلاً كان اختيارك رائعًا جدًا، فلنتابع اختياراتنا حتى ننمي ثقافتنا.

(١٤)

الصـدفـة

نجحت في الثانوية العامة، لكن مجموع درجاتها لم يؤهلها للالتحاق بإحدى جامعات بلدها الحكومية. ولما كانت بلدها تخلو من الجامعات الخاصة؛ ارتأى أهلها أن تنتسب إلى جامعة خاصة في بلد قريب... بعد بحث طويل سجلوها في جامعة عن طريق مكتب دراسات جامعية. تكفّل لهم بإيصال الكتب والنشرات الجامعية مقابل مبلغ يضاف إلى رسوم الجامعة.

وصلتها أول إرسالية من المكتب في منتصف العام الجامعي تقريبًا، ثم تواترت الإرساليات حتى تراكمت بين يديها. فكلما قلبتها هالها كمها الكبير، فاحتارت بأيها تبدأ، فتجهش منتحبة، فيضطر والداها إلى التدخل مشجعين، ويطلبان منها أن تخرج إلى الحديقة العامة علَّها تخفَّف عن نفسها، وتجدِّد نشاطها.

ولما تجلس للمذاكرة ثانية تتخيّل نفسها كمن يتجرع سُمًّا قاتلاً. حاولتْ التجلّد، والتصبّر إلا أنها تعود للتذمر والنفور وبخاصة إن صعب عليها فهم عبارة من قانون تقرؤه للمرة الأولى. فتعود إليها هجمة كراهية المذكرة من جديد مصحوبة بالبكاء.. كم مرة ندبت حظها العاثر الذي ساقها إلى هذا التخصص الذي يحتاج إلى مجالسة الكتب، وذاكرة حافظة! فتراها تترك المكتب، وتأتي تشكو لأمها صعوبة فهم القوانين.

كان الحدث يتكرر معها شبه يومي خلال فترة مذاكرتها للامتحانات النهائية ما شكَّل لديها حاجزًا نفسيًا، جعلها مذبذبة بين إقبال على الدراسة، وإدبار... فوجدت نفسها على موعد قريب من الاختبارات،

وما زاد الطينة بلّة- كما يقال- مفاجأة المكتب التي زادت كوابيسها بإعلامها (اقتصار العام الدراسي الجامعي على دورة واحدة بنهاية العام فمن رسب فيها أعاد عامه الجامعي).

هذا الخبر زاد إحباطها، لأنه يفقدها فرصة متاحة للطلاب المتعثرين ببعض المواد بالجامعات الأخرى والتي تمنح طلابها دورًا آخر. إضافة إلى اشتراط جامعتها (على المنتسب أن ينجح بثُلثي المواد الدراسية بالاختبار حتى يترفع للسنة اللاحقة، وإلا أعاد مواد السنة كاملة وإن نجح في بعضها).

هذه المستجدات أربكتها، وزادت معاناتها. فتقدمت إلى الاختبار من دون أن تعد له إعدادًا جيدًا، فجاءت نتيجتها مخيبة للآمال. وبقيت في سنتها للإعادة.

شاء الله ألّا تخرج من العام الجامعي خالية الوفاض، فخلال أدائها الاختبار تعرّفت على طالبة من مدينة أخرى في بلدها، فنشأت بينهما صداقة، ولما انتهى الاختبار ذهبت كل منهما في شأنها، لكنهما تبادلتا أرقام هاتفيهما... بعد مضي عام على لقائهما في الاختبار أراد الله أن يجمع الشتيتين عندما قررت أسرتها زيارة أقارب لها في مدينة صديقتها والتي خطرت على بالها فبحثت عن هاتفها مطولاً حتى وجدته، وبمجرد وصولها للمدينة اتصلت بها، وأخبرتها أنها ترغب في لقائها، فاتفقتا على الخروج معًا.

في اليوم التالي جاءت صديقتها، وحملتها بسيارتها، وأخواتها لتطلعهن على معالم المدينة. انطلقن سعيدات، لكن سعادتهن انتكست إذ ضرب مسمار أحد إطارات السيارة، فاضطرت الفتاة إلى الاتصال بأخيها للمساعدة في تغيير الإطار. جاء الشاب مسرعًا، ثم غيّر الإطار. كانت ضيفات أخته يقفن حول السيارة فعلى ما يبدو أن جمال إحداهن لفت نظره. فبمجرد عودة أخته طلب منها أن تستضيفهن في بيتهم.

لاق طلبه قبولها. اتصلت بصديقتها تدعوها وأخواتها إلى تناول طعام الغداء غدًا على سفرتهم.

استأذنت الصبايا والديهن، ثم ذهبن برفقة الفتاة إلى البيت، وتناولن الطعام وتعرفن على بقية أفراد الأسرة، وتوالت اللقاءات حتى تمكّن الشاب من نسج علاقة مع من أُعجب بها، حيث تكللت أخيرًا هذه العلاقة بالخطبة ثم الزواج الذي أسعد أسرتيهما. وغدتا تنتظران وافدًا يزيد من سعادتهما، إلا أن هذا الوافد تأخر بضع سنوات، ولما جاء كان توأمي بنات، إحداهما لم يكتمل نموها. راجع والدا التوأمين قسمًا كبيرًا من أطباء المدينة، فبعد فترة تيقنا أن علاجها صعب؛ لذلك حملاها وأختها التوأم وسافرا بهما إلى بلد أجنبي للعلاج، مبتعدين عن أهليهم.

غدت وسائل الاتصال هي المتنفس الوحيد بينهم وبين أهليهم للتعبير عن مشاعرهم. لكن حدثًا عاصفًا عصف قبل انتهاء علاج الطفلة التوأم في بلده سرق البسمة من أهلها، وأدخلهم في أتوان صراع قاس حال من دون عودته وأسرته إلى مدينته. وبقي ينتظر تحسن الظروف ليعود... كم كان يُؤمّل أن تنهتي أزمة بلاده سريعًا، إلا إنها صارت من سيئ إلى الأسوأ، ما رتَّب عليه أن يبقى بعيدًا. فأبوه يلح عليه أن يبقى بعيدًا في هذه الظروف على الرغم من أنه وحيده الذكر.

استمرت غربته، وكبر التوأمان حتى تجاوزا سن الرابعة. فبدأتا تتحدثان مع جدتهما عبر الهاتف مقلدتين أمهما بمناداتها (إمي) بدل (نانا)... ذات يوم كانت الجدة تتحدث إلى إحداهما عبر الفيديو فقالت الصغيرة لها:

- إمي، أنا أحبك كثير، كثير.بدي أنام عندك. بس حمودي، ونوسي ما ياخذوني لعندك.

تنهدت الجدة بعُمق وأسى. وحاولت أن تسري عن الطفلة فمدت إليها يدها. صدقت الطفلة، ومدت يدها لتمسك يد جدتها. حاولت غير مرة، لكن من دون جدوى فنادت أمها:

- نوسي، نوسي تعالي ساعديني أمسك إيد(إمي)حتى أذهب لعندها، بدي أنام اليوم عندها.

ضحكت ماما- نوسي- وقالت:

- حبيبتي نيني، هذا صعب إذا لم تدخلي في الهاتف.

- نوسي، ماذا تقولين؟ كيف أدخل في الهاتف وأنا أكبر منه؟

- نيني الحلوة، عليك نور، اليد التي ظهرت في الهاتف هي صورة، وليست يد(إمي) الحقيقية.

ثم أمسكت يد نيني بيدها، وقالت لها:

- انظري كيف ظهرت يدي وهي تمسك يدك والهاتف في يدك الأخرى.

- نوسي، أرجوك، أرجوك خذيني إلى بيت إمي.

بدأت الطفلة تنتحب بشدة حتى أثَّر بكاؤها في جدتها وأمها، فأخذتا تبكيان معها حتى سمع الأب صوت النحيب فجاء مسرعًا، وبصوت مرتفع يقول:

- خير، إن شاء الله يا مدام، ما هذا النحيب، أسقطت قلبي. بالله قولي ما أبكاك؟

أشار ت للهاتف. نظر إلى الشاشة، فشاهد صورة حماته تبكي. سلّم عليها، وقال:

- أمي، بالله عليك ما الذي حصل حتى جعلكن تنتحبن؟

- حبيبي، اطمئن كلنا بخير، وأهلك بخير. فألف حمد لله أننا بنعمة كبيرة من الله، لكن حبيبتي نيني تحب أن تأتي لتنام عندي. مدت يدها لأمسكها حتى تأتي، ولما مددت يدي تعذر عليها أن تمسكها، نادت أمها لتساعدها فحاولت أمها إقناعها بأن اليد الظاهرة على الشاشة صورة، فظنت أن أمها تضحك عليها، فأخذت تبكي، وبكينا لبكائها.

- أمي، اطمئني لن تطول غربتنا، وسنعود إليكم، وستمسك نيني يدك، وتمسكين يدها بإذن الله. فمهما طال الليل فسيأتي بعده فجر، ثم تشرق الشمس معلنة ميلاد يوم جديد، وأملاً جديدًا يُرتجى. اسمعي ما ورد على لسان الإمام الشافعي- يرحمه الله-:

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لن تفرج

- ولدي محمد، سيُكشف الغم، ويفرج الكرب بإذن الله، وتعودون لنا غانمين سالمين حتى نفرح بكم... أوصيك يا ولدي بنفسك وأسرتك كثيرًا. فلا أحد لهم بعد الله سواك... وأنتِ يا بنتي، خلي بالك من زوجك وبنتيك. ربي يسعدكم جميعًا.

كانت نيني تستمع لكلام أبيها وجدتها. فقالت:

- حمودي، أنا أحب إمي كثيرًا، ولي طلب واحد، أرجوك أن تنفذه.

- نيني، حبيبتي، قولي ما طلبك الوحيد الذي تريدين من حمودي تنفيذه؟

- أريدك أن تأخذني إلى بيت إمي حتى أنام عندها.

- تكرم عينك يا نيني، مجرد أن نصل إلى بلدنا. سآخذك من المطار إلى بيت إمي.

- حمودي، أنت وعدتني، وإمي تسمع وعدك حتى نوسي. فهما تشهدان على وعدك لي. فلا تتأخر علي، أنا مشتاقة لإمي.

- نيني، أتذهبين وحدك بدون توتي؟

سمعت توتي اسمها، فجاءت من الغرفة الأخرى على كرسيها المتحرك. فلما شاهدتها جدتها فرحت بها كثيرًا، ثم قالت – ما شاء الله- توتي عروس حلوة:

- حبيتي توتي، أنا أعتذر منك لأنني تأخرت في طلب رؤيتك، فقد شغلني بكاء نيني. سامحيني يا حبيبتي، كيف حالك اليوم؟ بإذن الله

ستكونين أحسن، وسنراك تسيرين بلا كرسي. شو رأيك يا حلوتي أن تصحبي نيني عندما تزورني؟

- يا الله! كم سأكون سعيدة، وأنتما تدوران حولي في البيت، إنها لساعة مباركة، ربي يحفظكما لنا جميعًا. نحن ننتظر قدومكم بفارغ الصبر.

- ماما، أتريدين شيئًا من هنا حتى أرسله لك؟

- لا، يا حبيبي، أريد أن تعودوا، لتكونوا قريبين مني.

تلكأت بالكلام أم نوسي إذ تذكرت خطابها لزوج ابنتها باسم الدلع (حمودي) فقالت:

- حبيبي محمد، لا يأخذ على خاطرك أن ناديتك بـ(حمودي)؛ لأنني سمعت البنتين ونوسي يناديك بهذا الاسم، فجاء على لساني يا ولدي.

- ماما، أطال الله في عمرك. ولِمَ الغضب؟ فهو اسم رافقني منذ الصغر. فأهلي في البيت اعتادوا مناداتي به. وامتد، ووصل إلى نوسي والبنتين فلا تشغلي بالك. يكفي أنه اسم دلع كما يقولون. ففي مدينتنا أكثر الأشخاص يسمون بأسماء أخرى دلعًا.

ودَّعت الجدة أسرة ابنتها، ثم شرعت تنتظر عودتهم، لكن عودتهم طالت، وطالت كثيرًا بسبب الأحداث الواقعة في بلدهم، والتي تطورت إلى حرب شبه داخلية زادت بؤس الناس، ومعاناتهم حتى دفعت الكثيرين إلى الهجرة خارج البلاد. فمن المهاجرين من وصل المدينة التي يقيم فيها محمد، حيث سمع منهم الكثير عما يجري في بلادهم بشكل عام ومدينته بشكل الخاص، فقلما يخلو يوم من قصف بالطيران ما جعل الكثيرين يتركونها تجنبًا للمخاطر وشح متطلبات العيش. هذه الحال المأساوية دفعت محمد إلى تأجيل عودته، إضافة إلى استكمال علاج الطفلة، والتي تحتاج إلى متابعة مستمرة من أطباء مختصين تفتقدهم بلده من قبل، فكيف بظروف الحرب؟

بقي طلب نيني يلاحق حمودي ليل نهار كأنه دين ثقيل يلازمه؛ لذلك كان ينتظر تحسن الظروف في بلده حتى يبر لنيني بوعده. كم مرة كانت تذكره به، لكن للأسف كانت أخبار بلده المؤلمة تتواتر إليه، كما يراها تغطي شاشات التلفازات العالمية يوميًا. لاشيء مشجعًا في بلده على عودته حتى الأطباء الذين يمكنهم متابعة علاج توتي غادر قسم كبير منهم البلاد.

كان محمد يجلس لساعات طويلة منفردًا في غرفته يفكر بما يجري في بلده الذي تعلق به، ورفض من قبل إغراءات كثيرة جاءته من مقاولين يعملون في الخليج كونه مهندس تكييف. إيمانه بالله والقضاء والقدر كان يصبّره فيحاول ألا يظهر مهزومًا وبخاصة أمام وعده لابنته الصغيرة... فبدت له الأمور سوداوية أمام عينيه لأنها لم تبق على حالها بل زادت وطأتها عليه.

ذات يوم فُوجئ باتصال هاتفي من أخته تخبره أن أباه مريض، وتسوء حالته يومًا بعد آخر... قلّب الأمور على كل الاتجاهات فلم يصل إلى نتيجة تمكنه من حسم الموقف الذي يزداد سوءًا، فكلما رجع إلى البيت سمع نيني:

- بابا حمودي، كيفك اليوم؟

يأخذها بين يديه، يقبّلها فتتابع:

- حمودي، لا تنس وعدك (بدي أنام في بيت إمي. بدي أنام في بيت أمي) أنت وعدتني.

يتصبَّر ويحاول إخفاء ضعفه أمامها، فيضعها أرضًا، ثم ينسل منها بحجة تغيير ملابسه إلى غرفة نومه، ثم يعطي الفرصة لدموعه التي تسح على خديه غزيرة. يمسحها مرة بعد أخرى وهي تتواتر. ويتساءل: ألا آن لهذه الحرب اللعينة أن تنتهي. يا إلهي، من أين لها أن تنتهي مادامت دول عظمى تدخلت بها؟ لقد فقد أبناء بلدي التحكم بالأمور

وغدت بيد دول تتضارب مصالحها ونحن ندفع الثمن.

هذا التفكير سيطر على محمد وبعث فيه الألم، حتى وصل حد التشاؤم... فكل يوم يمر عليه في غربته يراكم العقبات في طريق عودته حتى كاد يفقد الأمل بالعودة قريبًا. فلا البنت حتى الآن أكملت علاجها، ولا بادرة أمل بأن تضع الحرب في بلاده أوزارها... فكلما نظر إلى ابنته تذكر وعده الذي طال وطال. كم كان يؤمّل أن يعود إلى بلده الجريح ولو لسويعات معدودات ليرى أباه المريض، ويسمع منه كلمة رضا... تنهد من عمق ليبدأ جولة بكاء صامت... كم تمنى لو كان طائرًا حُرًّا يتنقل بين البلدان ليحط قريبًا من فراش أبيه، يواسيه في آخر أيامه فهو وحيده، لكن صوت نيني خلف الباب يقطع خلوته، وتخيلاته الكثيرة يناديه:

- حمودي، (أنا بدي أشكيك لإمي. إنت ما بدك تأخذني لعندها). كلامها زاد ألمه. يتصبر:

- نيني حبيبتي: لا تشكي حمودي لإمي؛ اصبري عليه قليلاً.

هل يحقق حمودي وعده لها؟...

الله أعلم بذلك.

(١٥)

أخـاف عليـه

كان الآباء في النصف الأول من القرن الماضي يحرصون على أن يعلموا أبناءهم أو بعضهم سر مهنهم، لكي يتابعوا أعمالهم من بعدهم، حتى وصل الحد بالبعض أن يكتم سر مهنته عن غير أولاده خوف منافستهم عليها مستقبلاً بحجة قلة الفرص المتاحة للعمل وبخاصة إذا كان تحصيلهم العلمي محدودًا. فمهنة الآباء مصدر رزق الأبناء وعليهم توريثها لهم كما ورّثوها عن آبائهم، ومنهم لا يكتفي بأولاده بل يسعى إلى توريثها لأحفاده من بعده، حتى سُمِّيت كثير من الأُسر باسم مهنها، وبخاصةإذا تعاقب على المهنة أكثر من جيل، فطالما سمعنا عن عائلات اشتهرت بالمهنة التي تمارسها كالنحاس، والنجار والدهان، واللحام، والصباغ، والحلاق، وقس على ذلك...

لكن الغريب في أيامنا أن يمتد الحرص على هذه الظاهرة إلى أعمال غير مهنية؛ فالحاكم يود أن يورث ابنه الحكم، والطبيب يسعى جاهدًا ليصبح أبناؤه أطباء، والضابط يدخل ابنه الكلية العسكرية ليتخرج ضابطًا يخدم في القوات المسلحة، حتى الممثلون حرصوا أن يعتلي أبناؤهم خشبة المسرح ليتصدروا الشاشات، لكنني أستغرب حاليًا أن يصل حرص توريث المهن إلى مهنة حراسة العمارات الاستثمارية... حارس عمارتنا في العقد السادس من عمره، أمضى معظمه في حراسة العمارات بعيدًا عن أسرته وبلده، يسافر مرة كل سنتين أو ثلاث. فقبل زيارته الأخيرة إلى بلده حصل على إذن دخول لابنه ليقوم بدوره ، وبدأ يدرّبه على كيفية العمل، وعرفه لمعظم ساكني العمارَّة... ولما سافر

الرجل بدأ الشاب مهام أبيه في حراسة العمارَّة وخدمتها. فاستطاع خلال فترة وجيزة أن يثبت وجوده، حيث لمس سكان العمارَّة تحسنًا في خدمة العمارَّة ونظافتها لم تكونا من قبل. ما دفعني ذات يوم أن اقتربت منه راغبا في تشجيعه، وشاكرًا له حُسن صنيعه، فسألته عن موعد عودة أبيه. فقال:

- عمي، أنا أشكر لك تقديرك عملي، فهذا واجبي ينبغي أن أقوم به، أما بالنسبة لأبي، فلله الحمد هو بخير، ودائمًا يحملني السلام إلى سكان العمارَّة، كما يسأل عنك... إلاإنه هذه المرة لن يعود. أليس من حقه أن يرتاح بعدما قضى معظم عمره بعيدًا عن أهله؟

- بلى، يا بني من حقه، فالرجل لم يقصر معكم فقد علّمكم وربَّاكم، فدوركم اليوم أن تردوا جميله وأعتقد أنكم لن تقصروا. لكن بقى لدي سؤال. من سيحل مكانه؟

- أنا. فقد توافقنا مع أصحاب العمارَّة.

فوجئت بكلامه، وزاد فضولي لأعرف أكثر. فقلت:

- أتعمل حارسًا، أليس هذا غريبًا يا بُني؟ فوالدك طلب مني أن أسأل لك عن عمل كمحاسب؛ لأنك خريج كلية التجارة - محاسبة - أليس كذلك؟

- بلى، يا عمي، فقد وجدت عملاً لدى إحدى الجمعيات التعاونية، ولما سألت عن المرتب الشهري للمحاسب وجدته زهيدًا لا يُقارن بدخل أبي. فقررت أن أعمل حارسًا مكانه.

توالت الأيام، وشاء الله أن تموت ابنة الشاب الصغيرة في بلده. فترك فقدها في قلب أمها حزنًا شديدًا حتى انطوت على نفسها، وأصبحت أقرب إلى حالة الاكتئاب. فارتأى عمها أن يرسلها إلى زوجها علَّها تنسى ألمها بتغيير الجو المحيط بها.

وصلت المرأة برفقة طفلها الوحيد ذي الأعوام الأربعة. فأقامت مع زوجها وطفلهما في غرفة الحراسة، حيث تفاجأ سكان العمارَّة بهما. لكن المفاجأة الأخرى بالنسبة لي قول الشاب: إن عمر ابنه أربع سنوات، فمن ينظر للطفل يعطه أقل من عمره الحقيقي ورغم صغر جسمه كان كثير الحركة، يأنس من حوله بسرعة، جريئًا، إذا كان يلعب في ساحة العمارَّة، ولمح شخصًا ينزل من المصعد سار بمحاذاته يحادثه كأنه يعرفه من قبل حتى يصل الشخص الشارع الرئيس، ثم يرجع ليتابع لعبه. كثير من سكان العمارَّة أحبوه.

شاء الله بعد مضي شهر من وصول زوجة الشاب وابنه أن يأتيه حارس العمارَّة المجاورة يطلب منه أن يتولى مهام حراسة عمارته، وتنظيفها، وغسل سيارات سكانها بسبب سفره المفاجئ لمدة أسبوعين...

وافق الشاب على طلب جاره أن يغطي مكانه فغدا حارسًا لعمارتين اثنتين ملأتا وقته فقلما نراه في عمارته الأساسية؛ لأن العمارَّة الثانية عدد شققها أكثر. فطفله إذا افتقده استغل انشغال أمه، وذهب إليه عبر شارع يسيل بالسيارات العابرة معرضًا نفسه للمخاطر.. لكنّ حدثًا خطيرًا وقع غيّر حياة الناس ولم يخطر على بال أي منهم، حيث زحف وباء كرونا إلى البلاد، وانتشر كانتشار النار في الهشيم. ولكي تتفادى الحكومة مخاطره، وتحد من تفشيه اتخذت بعض الإجراءات كإغلاق المطار أمام المسافرين، فلا يسمح بمغادرة المسافرين، ولا بدخول القادمين.

جاء توقيت الإغلاق قبل أن ينهي حارس العمارَّة الثانية أسبوعه الثاني، فحال من دون عودته من جهة، ونفع حارسنا من جهة أخرى لتصدق عليه مقولة:(رب ضارة نافعة). فأول منافع إجراءات الحكومة استمراره في خدمة العمارَّة الثانية. وثاني المنافع صدور قرار عن وزارة الداخلية يسمح لحاملي الفيز بالبقاء في البلاد ثلاثة أشهر أخرى. فزوجته إذًا

تأجل سفرها، بقى طفله يتردد يوميًا بين العمارتين، ويكسب معارف جددًا من سكان العمارَّة الثانية.

في صبيحة أحد الأيام قصدت مهندسة من سكان عمارَّة الحارس الأساسية سيارتها. جلست على كرسيها، وشغَّلت محرك السيارة لتذهب إلى عملها، فسمعت حركة خفيفة وراء السيارة لم تعرها اهتمامًا... حرَّكت ناقل الحركة لترجع خلفًا، فتذكرت فجأة أنها نسيت المخططات على مكتبها. أطفأت المحرك، ونزلت مسرعة... أغلقت باب السيارة، فلمحت(ابن الحارس) قريبًا من إطار سيارتها الخلفي يلهو بدمية. هالها منظره، وتخيلت لو أنها رجعت للخلف ثم انحرفت قليلاً ما الذي سيحصل؟ من هول المشهد فقدت توازنها، وكادت تسقط أرضًا لولا أن اتكأت على السيارة. بقيت مذهولة للحظات في مكانها تسابقها دمعتها، ولا تدري ماذا تفعل؟

رأى الحارس الشاب المهندسة واقفة لا تتحرك فأقبل مسرعًا، فأشارت إلى الطفل بأصبعها غير قادرة على الحديث، والدموع تغالبها. أمسك يد ابنه يؤنبه، ثم حاول التخفيف عنها قائلاً:

- يا أستاذة، أتعبنا محمد كثيرًا. جئت له بلِعب مختلفة لأشغله عن الخروج إلى الشارع فلم تُجد معه... لا أدري ماذا أفعل؟

هدأت أعصاب المسكينة قليلا... تنفست الصعداء، وشكرت لله صنعيه أن جنبها الله مالا تحمد عقباه، وتوجهت إلى الطفل تقول، والألم يملأ صدرها:

- والله، يا محمد، أنا أحبك، وأخاف عليك كثيرًا عندما تسير بين السيارات لتلحق بأبيك في العمارَّة الثانية.

سرحتْ قليلاً فتذكرت قصة أمه التي جاءت من بلادها حتى تنسى فقد ابنتها. فسابقتها دموعها أكثر من ذي قبل، فأردفت:

- أهكذا يا محمد، تفعل مع محبيك؟ سامحك الله. كم أرعبتني خوفًا عليك! حفظك الله.

ردَّ الشاب:

- أستاذة، سامحينا، والله، أنا مقدر شعورك وحالتك النفسية ومشاعرك النبيلة وحبك لمحمد، لكنه يبقى طفلاً لا يفهم. شاهدني أمسح السيارات. فلحق بي، ولما انشغلت عنه بالحديث إلى أحد جيرانكم افتقدته، فظننته أنه عاد إلى أمه. سأوصيها أن تراقبه جيدًا، وألا تسمح له بالخروج إلا بصحبتها. قدر الله وما شاء فعل... أرجو أن يكون الموضوع انتهى عند هذا الحد، لقد تعلمت درسًا لن أنساه.

توجهت المهندسة للطفل، قائلة:

- محمد، أتدري، ماذا فعلت؟

نظر إليها مبتسمًا. فأغرتها براءته، وتقدمت منه، أمسكته من يده ثم قبَّلته وقالت:

- والله، أنا أحبك من قلبي، وأخاف عليك عندما تسير بين السيارات لتلحق ببابا. فإذا رغبت في اللحاق به فاطلب من أمك أن توصلك. ما رأيك، أتعدني ألا تذهب وحدك؟

نظر إليها، والبسمة مرسومة على ثغره وهو لا يدري ما الذي جرى...

مدَّت يدها إلى حقيبتها وأخرجت قطعة نقدية ورقية، ودستها في يده، وهي تقول:

- تأكّد يا محمد، على الرغم من فصل اليوم سأبقى أحبك، وأخاف عليك كثيرًا، كثيرًا. حفظك الله لأمك الثكلى ولأبيك المكافح.

بقي الطفل كعادته كلما افتقد أباه استغل انشغال أمه وتسلل إلى العمارَّة الثانية عبر شارع عامر بالسيارات غير مكترث به. يجري مسرعًا على جانب الطريق مرة، وفي وسطه مرة أخرى، همّه أن يصل إلى أبيه

حتى حانت لحظة الحقيقة المؤلمة، والمريرة. ذات ضحى استيقظ، نظر يمينًا وشمالاً فلم يجد أباه ولا أمه، خرج مباشرةً إلى ساحة العمارَّة يبحث عن أبيه فلم يجده. لكنه لمح أمه تنشر الملابس في بهو خلف غرفة الحراسة، نادته أن يأتيها. انتظر لحظة في مكانه، ثم استغل انهماكها، وانطلق يهرول بين السيارات متجهًا إلى العمارَّة الثانية. ولما لمحته يهرول سارت خلفه تناديه فأسرع أكثر على غير هدى فارتطم بمقدمة سيارة خرجت فجأة من جادة جانبية... وقع الطفل أرضا، لكن السائق تابع طريقه بسرعة غير مكترث بالطفل المرمي أرضًا.

هال الموقف المأساوي أمه التي أسرعت إليه تحتضنه، والدموع تملأ وجهها مرعوبة عليه، لا تدري ماذا تفعل؟

نظرت حولها فلم تجد أحدًا ليساعدها في إسعاف الطفل. فرفعت صوتها المزوج بالنحيب حتى سمعها بعض الجيران فجاءوا إليها مسرعين، فتقدم أحدهم وحمل الطفل في سيارته مع الأم متجهًا إلى المستشفى، في حين ذهب آخر وأخبر أباه، ثم لحقا الطفل إلى المستشفى القريبة من مكان الحدث.

أُدخل إلى غرفة الطوارئ. فحصه الطبيب المناوب، ثم طمّأن أمه أن جروحه متوسطة، وسيجرون له بعض الصور الإشعاعية للتأكد من خلو جسمه من الكسور.

في هذه الأثناء وصل الأب يرتجف خوفًا ورعبًا. فطمأنه الرجل الذي أسعف الطفل؛ لأن الأم استدعها المحقق فسألها عن حيثيات وأرقام لوحة السيارة التي ارتطمت بالطفل، وإن كانت تعرف أحدًا شاهد الحدث. فجاء جوابها أنها لم تتمكن من التقاط أرقام اللوحة لأن السائق هرب مسرعًا، ولم يكن أحد من المارَّة قريبًا من المشهد.

حُجِز محمد يومًا في المستشفى. ولما تأكد الأطباء من سلامة جسمه من الكسور، أو أي مضاعفات أخرى؛ سمحوا له بالخروج.

خلال حجزه هذه السويعات زاره غير شخص من سكان العمارتين. فإذا حدثه أحدهم محذرًا من السير بين السيارات ثانية أخفى وجهه بين يديه إقرارًا بخطئه.

علمت المهندسة بما جرى له، ولما عاد إلى العمارَّة. رغبت في زيارته. فكرَّت مليًّا في هدية تُدخل السرور عليه، وتشغله عن الخروج إلى ساحة العمارَّة ولو لوقت بسيط. فارتأت أن تهديه لعبة تركيب لغابة تعيش فيها حيوانات مختلفة، وتحيط بها أشجار من كل جانب.

اتفقت المهندسة مع أبيه على موعد الزيارة، وفي الوقت المحدد حملت هديتها له، وعند وصولها إلى باب غرفة الحراسة قرعته ونادت:

- وين حبيبي محمد البطل؟

أجابتها أمه من الداخل:

- تفضلي أستاذة، محمد ينتظرك.

دخلت، اقتربت منه قبَّلته، وقالت:

- حبيبي محمد، أحمد لله سلامتك. ما شاء الله أنت قمر ينير المكان.

نظر إليها وكأنه تذكّر وعده لها من قبل. حاول إخفاء رأسه وراء ظهر أمه فتابعت:

- محمد، أنت حبيبي، وصديقي الصغير، أنا سامحتك على مخالفتك للعهد معي، تعال نؤكده اليوم يا بطل.

ابتسم محاولاً التواري، وهزَّ رأسه. قبَّلته، ووضعت ورقة نقدية في يده. رفعت صوتها تقول:

- أنا سأمشي يا محمد، بس لا تنس وعدك لي، وإلا لن تراني ثانية.

خرجت وعينا محمد تلاحقانها. ثم همَّ ولحق بها. عادت إليه تقبِّله وتقول:

- حبيبي، البطل من يسمع كلام والديه. فإن كنت تحبني كما أحبك فاسمع كلامهما. ولا تخرج إلى الشارع إلا برفقة أحدهما. ما رأيك يا بطل؟ أتعاهدني على ذلك؟

هزّ رأسه، فلمحت دمعة في عينه، فاقتربت منه ثم مسحتها وضمته إلى صدرها كأنه ابنها الذي لم تره منذ فترة بعيدة.

أرادت أن تغادر المكان وقلبها مرهون لديه. تشجعت وقررت ألا تنظر إلى الخلف حتى لا تقع عينها على عينه فتضعف مرة أخرى... سبحان من غرس محبة الطفل في قلبها!

فرجت الظروف وبدأت نسب الإصابات بوباء كورونا تتضاءل. فقررت وزارة الداخلية عدم التمديد لحاملي الفيز...

غادر محمد وأمه الكويت وترك خلفه كُثرًا يحبونه على الرغم من قصر المدة التي قضاها. فبقيت صورته ثابتة في ذهن المهندسة التي تسأل أباه في الأسبوع الواحد غير مرة.

(١٦)

الهـديـة

سعود تلميذ بالصف الرابع، يحب جدّه حُبًّا جمًّا؛ لذلك ينتظر مجيء يوم الجمعة بفارغ الصبر حتى يذهب إلى بيت جده؛ ليسمع ما يقصه عليه من حكايات جميلة. فمن عادته إذا وصل إلى الباب الرئيس أن يدخل مسرعًا إلى الديوانية، ثم يقبّل رأس جده الذي يحتضنه، ويبدأ يمسح على رأسه، فيستسلم له، لكن عيني سعود تبحثان عن جدته، فإذا لمحها انفك من حضن جده، وأسرع إليها يقبّل رأسها ويديها، ثم يعود إلى حضن جده منتظرًا أن يأتي المساء على أحر من الجمر ليسمع حكايته الأسبوعية... فقبل أن يقصّ جدّه عليه حكايته الجديدة، يطرح على سعود أسئلته المعتادة من مثل:

- أتواظب على حضور صلاة الجماعة في المسجد يا وليدي؟

- ما أعلى درجة حصلت عليها هذا الأسبوع، وبأي مادة؟

- هل حصل شيء جديد لديكم خلال هذا الأسبوع؟

يجيب سعود عن الأسئلة، لكنه يتمنى أن يبدأ جده حكايته التي ينتظرها... لكنه هذه الجمعة سمع من جده يقول له بمجرد أن جلس في حضنه:

- ما رأيك يا وليدي سعود، أن أقدّم لك موعد حكاية اليوم؟

نظر سعود إلى وجه جده والابتسامة ملء فمه. وقال:

- (تكفى جد) أنا أحب حكاياتك، وأنتظرها بفارغ الصبر.

- حسنًا، من أجل وليدي لن أؤخر الحكاية حتى المساء، فحكاية اليوم عن شاب من ديرتنا عرفته من عشرات السنين... أجاهز لسماعها؟

- أنا جاهز لأسمع كل حرف تقوله، يا أحسن جدّ.

سكت الجد للحظات... فخشي سعود أن يكون جده تراجع عن وعده، صبّر نفسه، ثم نظر إلى وجه جده كأنه يستعجله فسمعه يقول:

- ما أذكره يا وليدي، أننا كنا نسكن قبل أربعين عامًا في منطقة، معظم عماراتها يسكنها الإخوة الوافدون، لكن الشقة المجاورة لشقتنا يسكنها شاب من الديرة اسمه مساعد. هذا الشاب رزقه الله ثلاثة أطفال. الفرق بين أصغرهم وأكبرهم لا يتجاوز أربع سنوات. مساعد موظف يعمل في مؤسسة حكومية من السابعة صباحًا حتى الثانية بعد الظهر، لكنه يقضي معظم وقته مساءً بالبيت أو مسجد الحي؛ لذلك عرفه أكثر المصلين بل أحبوه لشدة تواضعه، وحسن استقباله لهم، ولمشاركته لهم أفراحهم وأتراحهم، ولمدّ يد العون للمحتاج منهم من دون تمييز. إذا غاب مساعد يومًا عن صلاة كثر حضوره إليها سأل المصلون بعضهم بعضًا عنه...

لاحظ الجد حركات سعود على غير المعتاد فوصلته الرسالة بأن سعود في باله سؤال، فقال:

- إن كنت يا وليدي تريد شيئًا فتفضل.

- جدي، أطال الله عمرك. لا أريد شيئًا سوى أن تحدثني عن أبناء مساعد لا عن الأب.

- حسنًا. أتدري كم طفلاً رُزِق مساعد يا سعود؟

- نعم، فمن حديثك قلت: ثلاثة أطفال صغار.

- بوركت يا ولدي، جارنا مساعد إذا بلغ الطفل من أبنائه سن السادسة اصطحبه إلى المسجد، وبتوالي الأيام أصبح مصحوبا بالأطفال الثلاثة

حتى عرفهم معظم المصلين، بل أحبوهم. إذا انتهت صلاة الجماعة تجمع الأطفال قرب باب المسجد ينتظرون أباهم. كلما مرَّ بهم مُصل في أثناء خروجه من المسجد ابتسم لهم، ومن المصلين مَنْ يصافحهم، ومنهم من يقترب ليتحدث إليهم.

آثر مساعد تربيتهم تربية صالحة؛ فركّز على غرس القيم الإسلامية السامية بنفوسهم كالتواضع، وحُب الناس، والإحسان إليهم، ومساعدتهم وإن اختلفت انتماءاتهم، أو جنسياتهم أو معتقداتهم، أو ألوانهم؛ ولكي يعودهم على ممارسة هذه القيم السامية خصَّص مبلغًا يوميًّا يقوم أحد أطفاله الثلاثة بتوزيعه بعد انتهاء أول صلاة جماعة يحضرونها على من حضر إلى المسجد من عمال النظافة. ولكي يضمن مساعد نجاح خطته زودهم ببعض الإرشادات قائلاً:

- بني، بعد انتهاء صلاة الجماعة يوزع أخوكم مشاري (الهدية) على العمال في المسجد، وفي اليوم التالي يوزعها حمد، وفي الثالث أحمد، هكذا توزعونها بالتناوب يوميًا ما دمنا نصلي في المسجد، فلي رجاء يا أحبتي، آملاً أن تعملوا به، مفاده ألا يضع أحدكم عينيه نصب عيني العامل وهو يسلمه هديته (المبلغ) فإياكم، ثم إياكم، بل ليصرفهما عنه، ولا يجعل يده أعلى من يد العامل، وليكن بشوش الوجه، ويردد بصوت غير مسموع: (مال الله أنفقه في سبيل الله لعباد الله).

قال سعود:

- جدي، أتسمح لي أن أسأل؟

- تفضل يا حبيبي.

- جدي، لماذا اختار مساعد (مشاري) لتوزيع المبلغ أولا، ولم سمَّاه بـ (هدية)؟

- أحسنت يا سعود، سبب اختيار مساعد لمشاري أن يوزع أولاً؛

لأنه أكبر أبنائه سنًّا. أما سؤالك الثاني فستأتي إجابته في ثنايا الحكاية. ولدي سعود، لاحظ جارنا مساعد بعد مضي أيام من بدء تنفيذ خطته ملامح الفرح على وجوه أولاده، إضافة إلى رغبتهم في الذهاب إلى المسجد، مبكرين، فقلما يتلكأ أحدهم، ولكي يتأكد من ذلك سألهم:

- أحبائي، مرَّت أيام على توزيعكم الهدايا للعمال، أيريد أحدكم أن يستوضح شيئًا؟

- مشاري: نعم، بابا، لماذا سميت الفلوس هدية؟

- أحسنت يا ولدي؛ أنا سميتها هدية؛ لأن الهدية رسالة محبة، تقوّي العلاقة بين الناس، كما تزيد التآلف والتقارب بينهم. فقد قال الرسول الكريم- صلى اله عليه وسلم-: (تهادوا تحابوا) فالهدية تبعث الحب بين المَهدي والمُهدى إليه، فهي تجسد كم الحب والتقدير الذي يكنه مقدمها لمقابله الآخر.. كما أود يا أحبتي أن أنقل للعامل الوافد رسالة بأننا أخوة في الدين والإنسانية، فنحن في الديرة لا نفرق بين خلق الله سواء أكان المخلوق غنيًا أم فقيرًا، أسود أم أبيض، عربيًا أم أعجميًا. فأكرمنا عند الله أتقانا.

هنا تداخّل أحمد في الحوار قائلاً:

- بابا لماذا يأتي هؤلاء الوافدون إلى بلدنا؟

- ممتاز يا ولدي، هذا سؤال مهم، أحبتي، هؤلاء يأتون بناء على طلب منا؛ لأننا نحتاج إلى أعمالهم كما هم بحاجة إلى نقودنا. فكلانا يحتاج إلى الآخر، أي تبادل منفعةمشتركة بيننا (ما يسمى المقايضة) يقدمون لنا خدماتهم، ونقدم لهم مقابلها نقودًا. فلو نظرتم إلى شوارعنا لوجدتم فيها غُرباء كُثر، تركوا أوطانهم، وجاؤونا للعمل. فعمال النظافة يكنسون شوارعنا لتبقى نظيفة، أما نحن فمقابل جهدهم نعطيهم مالاً. ولما كان عملهم غير فني جاء أجره قليلاً قد لا يكفي حاجات أُسرهم في أوطانهم؛ لذلك أوصيتكم ألا تنظروا إلى عيني العامل وأنتم تقدمون له الهدية حتى لا تحرجوه؛ لأنكم أصغر منه سنا.

قطع سعود حديث جده سائلاً:

- جدي، هل حضرت ذات مرة توزيـع الأطفال للهدايا على العمال؟

ضحك الجد وقال:

- نعم، أكثر من مرة يا سعود.

في اليوم التالي لحديث مساعد لأولاده بعد انتهاء صلاة الفجر وزّع أكبرهم سنًا الهدايا على من صلّى بالمسجد من عمال نظافة، وفي اليوم الثاني حمد، فالثالث أحمد.. هكذا تابعوا توزيعهم... حتى لاحظ مساعد بعد أسابيع على أبنائه أشياء لم تكن من قبل، فالسعادة التي تغمرهم لا نظير لها، ورغبتهم في الذهاب إلى المسجد أكثر من ذي قبل. فأحب أن يطمئن، فجمعهم وقال:

- أحبابي، أشكر لكم عملكم، وأدعو الله أن يجعله في ميزان درجاتكم. يا ترى أيستطيع أحد منكم أن يصف لي مشاعر العامل، وهو يتسلم هديته؟

صمت الأولاد، وأخذ كلّ واحد منهم ينظر للآخرين علَّه يجيب. انتظر أبوهم فلما لم تأته إجابتهم أضاف:

- إذًا تعذر تصوّركم لمشاعر العامل. من يخبرني عن شعوره وهو يعطي عامل النظافة هديته؟

أبدى الجميع استعدادًا، ووصفوا ماكان ينتابهم في تلك اللحظات من الشعوربالسعادة الغامرة، والراحة النفسية التي لا مثيل لها، والرغبة المتأججة التي تدفعهم إلى تقديم الأكثر للعمال والمحتاجين...

تهلل وجه مساعد بشرًا وقال:

- بوركتم يا أبنائي، ما تشعرون به طيب، وتأكدوا كلما كان خالصًا لله زادت هذه المشاعر في نفوسكم... بقي لديّ سؤال يا أبطال: من منكم يذكر ملامح وجه عامل منهم، وهو يستلم هديته؟

قال حمد:

- بابا، أنت أوصيتنا ألّا ننظر إلى عينيه فكيف نصف لك ملامح وجهه؟

- أحسنت يا حمد، أنا طلبت منكم ألّا تضعوا أعينكم نصب عيني العامل، ولم أقل لا تنظرون إلى وجوههم. ألم يلمح أحدكم شيئًا على وجه أحدهم وهو يهم بأخذ هديته؟

- أجاب حمد: بابا، للأمانة لمحت البشاشة والرضا، ولفت نظري أحيانًا سرعة العامل التالي لمن يستلّم الهدية، كأنه يخشى ألا تبقى له هدية.

تداخل أحمد بالحديث، مضيفًا على كلام حمد:

- بابا، أنا لمحت بسمة صادقة على فم العامل عندما يمد يده ليأخذ هديته.

- بوركتم يا أحبابي، أتدرون علام يدل هذا؟

- حمد: أظن أنه يدل على حُبه ورغبته في أخذ الهدية.

- وليدي مشاري، لم تجب على سؤالي. فبِمَ شعرت أثناء تقديمك الهدية للعامل؟

- حقيقة يا بابا، لا أستطيع أن أعبِّر لك عن شعوري وسعادتي.

توقف الجد لحظة وقال:

- سعود الغالي، أتدري ماذا فعل مساعد بعد هذا الحوار مع أبنائه؟

فوجئ سعود بالسؤال... صمت للحظة، ثم قال:

- لا يا جدي، لكن لا تقولها خلصت الحكاية.

ضحك الجد وقال:

- يا وليدي، أحبَّ مساعد زيادة مصروفهم فلما سمعوا الزيادة صاحوا بصوتٍ عالٍ: (شُكرًا يا أحسن أب)... ذات يوم بعد صلاة الفجر يا

وليدي، لفت نظري فعل أصغرهم، وهو يشاهد عاملي نظافة قريبين منه، فقام إليهما ووضع في يد كل واحد ورقة نقدية، ثم جلس فإذ به يلمح في الجانب المقابل عاملين آخرين ينظران إليه. طأطأ رأسه كيلا يراهما ثم بدأ يبحث في جيوبه، ولما عثر على مبلغ ذهب إليهما وقدمه لهما. كان ذلك قبل أن يبدأ أخوه بالتجوال عليهم موزعًا الفلوس.. لدى عودة الصغير من إعطائه العاملين الآخرين ما وجده في جيبه التقى بأبيه المتجه إلى الباب فسار بجانبه يحدثه... في هذه الأثناء قام مشاري، ووزع على العمال كالعادة اليومية.. نظرت إليهم نظرة محب، وغبطت مساعدًا على تربيته لأبنائه، وغرسه فيهم حب العطاء. ولما التقيته في صلاة الفجر لليوم التالي بُحت له بصنيع ولده الصغير، وشكرت له جهد تربيتهم الذي أثمر حتى وصل حد الإيثار. فأزعم أن الطفل أحمد لم يبق من مصروفه شيء عندما قدم للعاملين الآخرين ما في جيبه. كان الأطفال يصغون لحديثي، ثم توجهت إليهم كأب، فقلت بصوت خافت: - أحبائي، أنتم أبطال. هنيئًا لأبيكم مساعد على هذا الغرس الطيب الذي يحبه الله والناس أجمعين... ثبتكم الله على ما أنتم عليه؛ فأنتم قدوة نتعلم منكم صغارًا وكبارًا.

فشكر لي مساعد، ووعدأن يبقى على عهده، مُحبًّا للعمل الإنساني قدر طاقته مستشهدًا بما ورد في التنزيل: {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا} البقرة [286].

سكت الجد عن الحديث فعرف سعود أن الحكاية انتهت. قبَّل رأس جده وقال:

- شكرًا لك يا أحسن جد، وأعدك إن وجدت محتاجًا بأن أساعده بما أستطيع.

-أحسنت يا ولدي.

أترك بين أيديكم هذا الأنموذج من الشباب الذي يزرع الأمل فينا، ويبشرنا هو وأمثاله الخيرون بمستقبل واعد لهذه الأمة ذات الوسطية. فلا تخجل، يا من رعاك الله، من بذل المال وإن كان قليلاً. فما تراه قليلاً يراه من فقده كبيرًا. جد من دون تردد، ولن تضرك قلة الجود (إنما الأعمال بالنيات).

(١٧)

الـتـؤامـان

أميرة ومحمد توأمان لأسرة متوسطة الحال، كلا الأبوين يحمل شهادة جامعية، وهما يحرصان بكل ما أوتيا من قوة على تنشئة التوأمين تنشئة إسلامية معتدلة؛ واضعين نصب أعينهم حديث الرسول الكريم عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- عن النبي - صلى الله عليه وسلم- قال:(كلّكم راع، وكلّكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهل بيته، ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده، وهي مسؤولة عن رعيتها، والولد راع في مال أبيه ومسؤول عن رعيته، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، فكلّكم راع، وكلّكم مسؤول عن رعيته). متفق عليه. المكتبة الشاملة.

من المعروف أن الراعي هو الحافظ المؤئمن الذي يتولى تدبير ما بين يده يحفظه، ويرعاه كما أنه ملتزم بصلاح ما قام عليه، وما هو تحت نظره، مطالب بالعدل فيه. فإن قام كل منا بواجبه لمن تحت يده انعكس أثر عمله الإيجابي في الأمة تقدمًا وتماسكًا وأُلفة. ونال من يحسن الرعاية الموكلة إليه ثوابًا جزيلاً، يكون بموجبه بإذن الله حسابه يسيرًا. وإن قصّر أضر بالأمانة والأمة معًا، وعسّر الحساب على نفسه.

وفق هذا الدستور سعى أبوا محمد وأميرة إلى جعل التوأمين- مستقبلاً- نافعين في المجتمع؛ فلم يدّخرا جهدًا إلا وكرّساه حتى يغرسا فيهما منذ نعومة أظفارهما حُب الآخرين، وتقديرهم، واحترامهم، واحترام آراء الذين يخالفونهما، بل ركزا على تعليمهما أمور الدين حتى يعملوا بها.

فكانا يحثانهما على مد يد العون لمن يحتاج من الفقراء والمساكين ما داما قادرين. وعلى الصدق في الحديث مهما كانت تبعات الصدق مكلفة، فالصدق سلوك سوي يرضي الله ورسوله والناس أجمعين.

ولكي يرسخا هذه المبادئ عمليًا كانا يستغلان كل تصرف مهما صغر ليبينا لهما مضار الكذب ومنافع الصدق، وعملا على تعويدهما على الانضباط والنظام، ليكونا عاملي سعادة لمن حولهما من البشر سواء أكانوا ذوي قربى أم غرباء.

توالت الأيام - وما أسرع مرورها!- ليجد الأبوان أن التوأمين يتخرجان في روضتهما التابعة لإدارة أجنبية، كانا يستهدفان من إلحاقهما بها تعليمهما اللغة الإنجليزية منذ الصغر... تخرج التوأمان أملى على الأبوين أن يبحثا لهما عن مدرستين ابتدائيتين مناسبتين؛ فارتأيا أن يسجلاهما في مدارس حكومية، ويقوما في البيت بمتابعتهما أولاً فأولاً.

أظهر التوأمان في مدرستيهما تفوقًا ملحوظًا ما جعلهما محطّ الأنظار، وكانا من السباقين بالانتساب إلى الأنشطة المدرسية. في الصف الخامس انتسب محمد إلى مسابقة القراءة الحرة. كما انتسبت أميرة في مدرستها إلى النشاط الفني، لأنها تحب الرسم والموسيقى.. بدأت التدريب مع مجموعتها على العزف، وإلقاء الأناشيد الدينية بإشراف معلمة النشاط الفني بالمدرسة. لم يمر وقت طويل على انتسابها حتى اكتشفت المشرفة موهبتها فطلبت ضمها إلى فرقة الطابور الصباحي وبالتدريب المستمر في المدرسة، ثم المتابعة الدائمة من البيت ارتقى مستواها، وجاد إلقاؤها للأناشيد الدينية.

في مناسبة احتفال المدرسة بذكرى هجرة الرسول- صلى الله عليه وسلم- من مكة إلى المدينة؛ أحبت معلمة النشاط الفني إبراز موهبة أميرة فقدَّمتها في إحدى فقرات الحفل لتنشد(طلع البدر علينا) ولما بدأت تنشد كان يرافقها فريق عزف الطابور الصباحي. فجاء أداؤها

متميّزا لاقى إعجاب الحضور الذي بادلها بالتصفيق المتواصل تشجيعًا.

ومن مواهبها أيضًا الرسم فقد رسمت أميرة مشاهد الكثير مما حولها، وبمثابرتها على التدريب متقبلة نصائح معلمتها، والعمل بها؛ تمكنت من رسم بعض المشاهد الطبيعة التي عُرضت لها في حفل ختام الأنشطة المدرسية بنهاية العام على مستوى المنطقة التعليمية، والتي نالت إعجاب الحضور، قياسًا بسنها ومستواها التعليمي... هذا شجعها أكثر؛ لذلك تراها إذا عادت من المدرسة مساء بدأت تحل واجباتها ومن ثمّ تشرع تمارس مواهبها بالرسم تارة، وبالعزف أخرى. وفي العطلة الصيفية تنتسب إلى الأندية الصيفية كي ترتقي بمواهبها ولتمارس هواياتها.. كم مرة أثنى أبواها على عزفها ولواحاتها، وكانا دائمي التشجيع لها.

أما التوأم محمد فكان يغطّي معظم وقته بعد إنهاء واجباته المدرسية في مكتبة المنزل، فتراه يجلس خلف المكتب الذي خصصه له أبوه، ويبدأ المطالعة أسوة بأبيه العاكف على كتبه وكتاباته... كم مرة طلب من أبيه أن يعطيه مجلة أو كتابا ليقرأه. كان الأب يستغل رغبة محمد تلك فيعطيه مجلة أو كتيبًا يتناسب وعمره ومستواه، وبخاصة الكتيبات التي تسطِّر سير الصحابة سواء أكانوا صغارًا أم كبارًا ممن تتلمذوا في مدرسة النبوة، وكان يشترط عليه بعد الانتهاء من قراءة الكتيب أن يلخِّص له مضمونه وأبرز النقاط الرئيسة فيه، وأحيانًا يأخذ الكتيب ويبدأ يطرح عليه أسئلة ليتأكد من فهمه المقروء... بهذه الطريقة رسخ لدى محمد حب المطالعة وقراءة السير والتراجم فغدا من أبرز طلاب الأنشطة الثقافية في مدرسته ولاسيما القراءة الحرة.

العام الماضي حصد محمد المرتبة الأولى على مستوى المنطقة في القراءة الجهرية ما شجعه أكثر على القراءة؛ فقد وضع هذا العام نصب عينيه أن يتصدر النتائج على بقية المناطق التعليمية على مستوى

الوزارة. وبمجرد أن أعلنت المدرسة عن نشاط المسابقة القراءة الحُرة انتسب للمسابقة، وبدأ التدريب تحت إشراف معلمة النشاط الثقافي التي درّبته من قبل. فلاقى انتسابه قبولاً منها واهتمامًا خاصًا، فكانت تشجعه باستمرار. هذا الاهتمام منها، إضافة إلى تشجيع أسرته كانا جناحين أهلا محمدًا ليحلق عاليًا، وليحصد تفوقًا جديدًا.

خطة المشرفة على نشاط المسابقة تقتضي أن يجتمع فريق المسابقة أسبوعيًا في مكتبة المدرسة لتستعرض معهم ما قرؤوه، وتناقشهم حتى تقف على مستوى فهمهم المقروء... من تلامذة الفريق تلميذ انتقل إلى المدرسة هذا العام من مدرسة أخرى يهوى القراءة، فبمجرد أن أعلنت المدرسة عن أنشطتها انتسب لفريق القراءة الحرة اسمه خالد، كان التلميذ ذا جسم ضخم وبنية قوية، يهابه التلاميذ وفي الوقت ذاته يحب الزعامة فإذا ارتكب خطأ تعاقب عليه إدارة المدرسة لا يجرؤ أحد ممن شاهده أن يفصح عن اسمه خوفًا من أذاه.

ذات يوم دخل تلامذة الفريق إلى مكتبة المدرسة ينتظرون مجيء المشرفة للتدريب. قام خالد إلى إحدى النوافذ ليفتحها فحاول فتحها بشدة، لكنه خلع مقبضها، وضعه جانبًا، وجلس بين زملائه حتى انتهت فترة التدريب... خرج الفريق من المكتبة. وجاءت أمينة المكتبة. فوجدت مقبض النافذة منزوعًا، حاولت إعادته لم تفلح. طلبت من عاملة المكتبة المحاولة، لكن دون جدوى... أخبرت أمينة المكتبة مديرة المدرسة بآخر الداخلين إلى المكتبة. استدعت المديرة المشرفة على الفريق وأخبرتها بخبر المقبض المنزوع. لم تجب المعلمة؛ لأن الحدث كان مفاجئًا لها.، بل طلبت من المديرة التريث حتى تسأل أعضاء الفريق. جمعت فريقها وقالت:

- أحبتي، أين كنا منذ نصف ساعة؟

- في المكتبة.

- لمن المكتبة يا مجتهدون؟

- لنا نحن طلاب المدرسة.

- إذًا يا أحبتي، لكم ولغيركم فأنتم فيها ضيوف، وهي أمانة فلنحافظ عليها وعلى كل أمانة. أليس كذلك؟

- بلى، معلمتي.

- فيا أحبتي من منكم نزع مقبض النافذة في المكتبة؟

نظر كل واحد منهم إلى وجوه زملائه، ولم ينطق أحدهم بابنة شفة.

كررت السؤال من دون جدوى. قالت في نفسها: (ما العمل؟) فكرت قليلاً فاهتدت إلى طريقة عساها تأتي بنتيجة، فقالت لهم:

- اخرجوا وانتظروا خارج الغرفة.

وشرعت تستدعيهم منفردين. سألت الداخل الأول ثم الثاني، فأنكر كل منهما معرفة الفاعل. ثم دخل محمد ثالثًا فلما سألته قال:

- معلمتي، خالد حاول فتح النافذة. ولما عالجها أكثر من مرة انخلع المقبض في يده.

ابتسمت في وجهه وقالت:

- شكرًا لك يا محمد صدقك، اخرج وليأت زميلك الرابع.

دخل خالد، والمعلمة تنوي التمحيص حتى تتأكد أكثر، ولكي لا تكشف محمدًا. سألته:

- خالد، من نزع المقبض؟

أنكر معرفته، بل قال:

- المقبض من قَبل منزوع.

استدركت وقالت:

- كيف عرفت بأنه منزوع؟

تلعثم وقال:

- إذًا فمن نزعه؟

هذه نقطة أكّدت لها صدق محمد. استدعت التلميذ الأخير، وسألته فأنكر... دعت الجميع إلى الغرفة، ثم أوقفتهم أمام الطاولة، جلست مقابلهم ثم توجهت فجأة إلى أحدهم قائلة:

- أنا أشك بأنك أنت من نزعت المقبض.

أنكر الطفل بإصرار في هذه اللحظة فتابعت حركة عينيه على من تركزان فلمحتهما تذهبان إلى خالد... تابعت بالطريقة نفسها مع الآخرين من غير ترتيب وقوفهم، لكنها لاحظت بمجرد أن تقول لأحدهم أشك بك تذهب عيناه إلى خالد من شعور يبدو... إلا خالدًا فلما سألته، قال: لا معلمتي. وبقيت عيناه تنظران إليها، ما أكّد أنه الفاعل.

صرفت التلاميذ، وأخبرت المديرة اسم التلميذ الذي نزع المقبض...

استدعت المديرة رئيسة قسم اللغة العربية والاختصاصية الاجتماعية، ووكيلة المدرسة، ومشرفة المسابقة، وأمينة المكتبة... كلفت أمينة المكتبة الاحتفاظ بالمقبض، وأن تذهب إلى حارس الأمن ليطلب الفني الذي تتعامل معه المدرسة في مثل هذه الحالات ليصلح المقبض... وتابعت والباقي علاج مثل هذه الظاهرة بين التلاميذ، فبعد نقاش معمق اتفقن أن تخرج المديرة في طابور الصباح غدًا لتلقي كلمة تشكر فيها التلاميذ المشاركين بالمسابقات، والمعلمات المشرفات، لأنهم يمثلون العاملين في المدرسة وتلامذتها على مستوى المنطقة، فمن يحصل بالمسابقات على مرتبة متقدمة يسهم في إبراز اسم المدرسة ما يشكّل فخرًا لإدارتها ومعلماتها وتلامذتها، ثم خصت فريق القراءة الحرة؛ لأن أحد طلابه فاز في العام الماضي بالمرتبة الأولى على مستوى المنطقة. فإدارة المدرسة تطمح هذا العام أن يتصدر فوزه ليكون الأول على مستوى المناطق كلها، آملة أن للمسابقات الأخرى نصيب من

التفوق؛ لذلك ارتأى مجلس المدرسة تكريم المشاركين في المسابقات هذا العام تحفيزًا لهم، وستبدأ اليوم بفريق القراءة الحُرة، ثم يكّرم بدءًا من غد بالطابور الصباحي فريقًا آخر، وهكذا يتوالى التكريم يوميًا حتى تغطى كل الفرق المشاركة في مسابقات هذا العام.

استلمت مشرفة الإذاعة(الميكرفون) وشرعت تستدعي أعضاء فريق مسابقة القراءة الجهرية لتكرّيهم من قبل المديرة ومعاونتها.

قبل ختام الحفل أعلنت رئيسة قسم اللغة العربية عن مسابقة داخلية خاصة بإدارة المدرسة بالتعاون والأقسام العلمية بعنوان: (أصدق طالب في فصلي). فحوى المسابقة أن الطالب الذي ينال أعلى الأصوات في فصله بأنه الأصدق سيكرم في نهاية العام بالطابور مع بقية الفائزين في المسابقات الأخرى.

انفض الطابور. ولما دخل خالد إلى فصله انزوى جانبًا ليرى ما هديته؟ فوجد فيها ورقة كُتب عليها: (إدارة المدرسة تشكر لك مشاركتك بمسابقة القراءة الحرة، وتدعوك لمراجعة المديرة خلال الفرصة).

ذهب خالد إلى غرفة المديرة، سلَّم، وقال:

- أستاذتي وجدت هذه الورقة في هديتي.

- حسنًا، بُني، اغلق باب الغرفة أولاً...

ثم قالت:

- ولدي خالد، أنت طالب متميز، والدليل أننا كرمناك في الطابور وأشركناك لتمثل المدرسة في المسابقة على مستوى المنطقة، فهل قصرنا معك؟.

لم يجب وطأطأ رأسه...

- ولدي خالد، أنت بسن ولدي الذي أحبه. فأنت تعلم كم تحبك أمك، وأنا كذلك أحب كل تلميذ في المدرسة، فكيف إن كان متفوقًا مثلاً، ويمثل مدرستي في المسابقات.

كان خالد ينظر إليها مستغربًا هذا الكلام، ويبدو أن ذهنه كان خاليًا من حدث المكتبة، فجاءته مفاجأتها:

- يا خالد، يا ماما اصدقني. من خلع مقبض النافذة؟

- مديرتي بصدق وصراحة أنا، لكنني خشيت العقاب.

- أشكر صدقك يا ولدي. تصّورأنك وحيد بالبيت وحصل منك هذا الفعل فهل تنكر؟

- لا، لأنني الوحيد. فإن أنكرت فلن يصدقني أحد.

- ولدي، تصوّر أن من معك في المكان أنكروا جميعهم ماذا ستفعل؟

- سأقسم بالله بأنني لست أنا الفاعل.

- حسنًا، فإن كنت الفاعل أتستطيع القسم؟

- لا.

- لماذا؟

- لأنني سأكذب على الله فهو يراني وأخافه.

- ولدي، الله معنا أينما كنا، ويرى فعلنا. فلما كنت في المكتبة كان معك أليس كذلك؟

- بلى، مديرتي.

- إذًا، لم أخفيت فعلك؟

سكت خالد، ولم يجب.

أكملت المديرة:

- ولدي، لو أنك بمجرد أن خلعت المقبض جئت المعلمة، وقلت لها ما فعلت واعتذرت، فأنت لم تقصد خلعه لشكرتك وبذلك انتهى الأمر. لكن لم تفعل، مما دفع المعلمة إلى سؤالكم وتضييع وقتكم

ووقتها... فلو قلت لها الصدق لشكرتك لصدقك... فالله تعالى يا بُني، يحب الصادقين، وكذلك الناس يحبونهم... فما رأيك أن تكون ممن يحبهم الله والناس؟

- نعم. أعاهدك مستقبلاً أن أكون صادقًا.

- أنا قبلت عهدك. شكرًا لك.

غادر خالد غرفة المديرة فرحًا؛ وهو يظن أن تصرفه بقي سِرًّا، لا يعرفه إلا الله، ومديرة المدرسة، ومشرفة المسابقة، وغاب عنه أن تلاميذ فريقه يعرفون الحقيقة، لكنهم...

(١٨)

وفـــاء

عادت خلود من مدرستها. كتبت بقية واجباتها، ولم تجلس إلى حاسوبها كعادتها، بل كُثرت حركتُها في الشقة ما لفت نظر أبيها. فقال:

- يا بنتي، مالك لاتستقرين على حال، هل حصل شيء في المدرسة؟

- بابا، ذهبنا اليوم إلى مكتبة المدرسة. فوقعت يدي على قصة. فلما قرأت جُزءًا منها تألمت من أحداثها المتناقضة، ولم أكن أتصور لحظة أن أُمًّا تتخلى عن طفلها الصغير.

- لا، يا حبيبتي، لا تستغربي. فإن فككتِ عبوسك، وأبعدت كآبتك أقصُّ عليك أعجب من قصتك كان قد رواها لي جدّك- رحمه الله- هل اتفقنا؟

- نعم، اتفقنا.

- أسمعيني ضحكة قوية تسمعها أمك في المطبخ.

فركت خلود وجهها، وتظاهرت بالضحك... لم تُرض ضحكتُها الخافتة أباها، بل طالبها أن تضحك بصوت مرتفع حتى تسمع أمها. كررت ضحكاتها. فسمعتها أمها. فأقبلت مسرعة...

- خير... خير يا بنتي، ما شاء الله! ضحكاتك ملأت البيت.. ماذا حصل؟

نظر ت خلود إلى أمها، والبسمة على فمها، وقالت:

- ماما، صلّي على النبي الكريم. بابا سيكسر (الرتابة) ويقص لي حكاية حصلت في قريتهم رواها له جدي. ما رأيك أن تشاركيني سماعها؟

استدرك الأب قائلاً:

- يا حلوتي، ما رأيك أن نؤخر القصة إلى غدّ؟ فأنا مضطر حاليًا إلى كتابة تقرير عن مهمتي اليوم. لأقدمه صباحًا إلى الشركة.

ضحكت خلود، وقالت:

ماذا أفعل؟ أخشى أن تتراجع عن وعدك لو قلت: لا.

تدخّلت الأم، وقالت:

سامحك الله. تستشير ابنتك، وكأنني غير موجودة.

- لا، يا أم الكل، فالحديث كان من قبل بيني وبينها، أيمكننا أن نعيش بدونك؟

- يعمر بيتك. قل هذا الكلام من قبل حتى تسمعه ابنتك... أسمعت ماذا قال؟

نظرت إليها خلود بطرفي عينيها وقالت:

- ماما، أنت تمثلين لي ولبابا الروح، فأرجوك أن تؤكدي عليه حتى لا يسحب وعده.

- لا، حبيبتي بابا لا يتراجع إن وعد.

استبشرت خلود خيرًا، وقالت:

- أنا ذاهبة للنوم إن استطعت بعدما وعدني بابا بحكاية جدي.

قبّلت رأس أبيها، فرأس أمها، وذهبت، وهي تمنّي نفسها بسماع قصة جدها.

في الصباح ذهبت إلى المدرسة، وقصة أبيها حاضرة في ذهنها. فبمجرد أن دخلت البيت مساء نادت:

- بابا، أما زلت على وعدك؟

- يا بنتي، وعد الحر دين. بعد أن نتناول طعام العشاء سأقصُّ عليك القصة.

- يا الله! بعد العشاء. فلم لا يكون الآن؟

- تكرمي خلود، غيّري ملابسك، وتعالي نتناول طعامنا أولاً ثم أقصها لك.

هذا الكلام أسعدها. بدّلت ملابسها، ودخلت إلى المطبخ لتساعد أمها في إعداد السفرة، ثم نادت أباها. فتناولوا طعامهم، لكن الأب سبقهم إلى الصالة بينما انشغلت خلود وأمها في رفع السفرة وغسل الأطباق. وبمجرد أن دخلتا الصالة غيّر جلسته، وتنحنح على طريقة الحكواتي، وقال:

- يا سادة، يا كرام، كان في قديم الزمان حسبما سمعت من أبي-رحمه الله- طفل صغير في قريتنا اسمه "عزيز" له من العمر سبع سنوات عندما توفي أبوه، ولم يترك لأسرته شيئًا تعيش منه حتى الغرفة التي كان يسكنها لم تكن ملكه... حاولت أم عزيز بعد وفاته وقبل انتهاء عدتها أن تعمل لتغطي مصاريف بيتها، لكنها فشلت لقلة مردود عملها. وبمجرد أن تقدم لها رجل للزواج وافقت عليه، وتركت ابنها لعمه يرعاه...

لم يتقبل أبناء العم عزيزًا، فشرعوا يؤلبون أباهم عليه حتى طرده. طاف الطفل المسكين أزقة القرية تائها فكلما طرق باب قريب له زجره... أخذ يبكي وهو يسير على غير هدى حتى كاد يخرج من القرية. لمح بيتًا منفردًا في نهاية أحد أزقة القرية، اقترب منه، ثم طرق بابه خائفًا أن يُزجر. كانت الدموع تغطي وجهه... خرجت له عجوز. عرّفها على نفسه، ثم رجاها أن تسمح له بالإقامة حتى يتدبر أمره...

سكت الأب قليلاً ثم قال:

- برأيكما، أتلبي العجوز طلبه؟

نظرت خلود لأبيها... وقالت:

- بابا، بالله، قل أنت ولا تقطع علينا تسلسل الحدث حتى نعرف مصير هذا المسكين.

- تأمرين يا حلوتي... العجوز وافقت على طلبه، لكن بشروط. ولما سمعها عزيز وافق عليها بلا تردد، قائلاً:

- سيدتي، ما دمنا اتفقنا، أتسمحين لي أن أناديك يا (أمي)؟

ضحكت، وقالت:

ما دمنا اتفقنا يا ولدي، لك ما تريد. فأنت قريبي من جهة أمك وسأعتبر رعايتي لك صلة الرحم بأمك.

قام عزيز مسرعًا، قبّل يدها، وبدأ ينتحب... رقّ قلبها له، وهدّأت روعه. فعاهدها أن يكون كولدها بارًّا بها، مخلصًا لها.

أخذته من يده وأدخلته إلى غرفة، وقالت:

- ولدي، هذه لك. نم هانئًا.

لم يصدق المسكين ما سمعه، فبمجرد أن سلم جسده للفراش خطفه النوم. ولم يستيقظ إلا على حركتها عند الفجر، نهض وتوضأ، وصلّى، ثم خرج إلى ساحة الدار، وجلس على دكة (١) ينتظرها. ولما خرجت فوجئت به...

- يبدو يا عزيز، أنك لم تنم هذه الليلة.

- أماه، بل نمت نومة هانئة لم أنمها منذ سنتين.

- إذًا لم نهضت مبكرًا؟

- هذه عادتي، أستيقظ مبكرًا أصلي، وأنتظر عمي إن أراد مني شيئًا.

(١)) جدار قليل الارتفاع يبنى في ساحة الدار يوضع عليه فرش بسيط ليُجلس عليه خلال السهرة أو وقت الفراغ.

هزَّت رأسها، وهمست: طفل بهذا الخلق يُترك... إنه من كيدكن.

- حسنًا يا ولدي، تعال معي.

مشى خلفها إلى الحظيرة. أخرجت البقرة والحمار ثم وضعت حاجاتها على ظهر الحمار، وسارا إلى أرضها... هناك علمته ما سيفعله يوميًا. وبقيت تعلّمه حتى اطمأنت، فغدا يقوم بمهامها.

ذات يوم كان عزيز في طريق إلى الأرض، فصادف مدير المدرسة في قريته. فسلّم عليه. ردَّ المدير عليه السلام، وسأله:

- لماذا يا بُني، لا تذهب إلى المدرسة؟

لم يرد عزيز. كرر المدير السؤال. فقال عزيز:

- أنا لم انتسب للمدرسة يا أستاذ؟

- ما اسمك يا بُني؟

- اسمي عزيز خالد.

تابع كلٌّ في طريقه.

في المساء قصد المدير مختار القرية ليبلغه موعد افتتاح حلقة محو الأمية. ثم سأله عن عزيز. فعرف قصة عزيز اليتيم. فرجا المدير المختار أن يحث عزيزًا على الالتحاق بحلقة محو الأمية المزمع افتتاحها حتى لا يبقى أُميًّا.

في اليوم التالي أبلغ المختار المصلين بموعد افتتاح الحلقة، ثم ذهب إلى بيت العجوز، وبلّغ عزيزًا رغبة مدير المدرسة.

استأذن عزيز حاضنته فسمحت له. فكان عزيز الملتحق بالحلقة أصغر سِنًا من كل المسجلين، ولما بدأت دروسها التعليمية أظهر الطفل تفوقًا ملحوظًا لفت نظر معلم الحلقة. فشجعه على الدراسة، وتكفّل له بالكتب، وبشرح كل ما يصعب عليه.

هذه الرعاية من المدير، ثم المعلم أثمرت بعد سنوات عن نجاح عزيز في امتحان الشهادة المتوسطة حُرًّا. لكن الأيام عبست له وتغيّرت عليه ثانية، بل سحبت ابتسامتها جراء مرض أصاب حاضنته، فألزمها الفراش. كان عزيز يقوم بكل احتياجاتها. ولما طال مرضها استلف مبلغًا من المال، وأخذها إلى الطبيب في المدنية للعلاج إلا أن المرض تفاقم، وساءت أحوالها أكثر. فطلبت من عزيز أن يدعو لها مختار القرية و رجلين آخرين...

حضر المختار والرجلان. رحبت بهم وقالت:

- يا مختار، أنا للموت أقرب من الحياة. فأرجوك أن تكتب صكًا بأنني بِعتُ لعزيز ما أملك من دار وأرض وحيوانات مقابل خدماته لي طيلة هذه السنوات، وسأبصم ثم توقعون إقرارًا بالبيع.

لم تدعهم يغادرون حتى نفذوا طلبها. أخذت الورقة، وضعتها تحت رأسها.

هذا التصرف منها أذهلهم، ولم يكن عزيز بأقل منهم دهشة وبخاصة عندما تذكّر مشهد أمه وهي تتركه صغيرًا. بكى على أمّه الحقيقية والحاضنة أمام الحضور.

زاد المرض على العجوز. فلازم عزيز غرفتها ليل نهار إلا للحظات، فإن سرقها النوم ذهب إلى الأرض ليجمع الحشائش كي يُطعم الحيوانات.

بقيت العجوز طريحة الفراش فترة كانت محبتها تزيد في قلب عزيز، يمرضها، يدعو لها، يطعمها ينظّفها، لكن القدر شاء أن يأخذ وديعته. فتوفيت المرأة الإنسانة. بكاها عزيز بكاءً شديدًا، وعاهد الله أن يقسّم ما تدره الأرض والحيوانات مناصفة. يتدبر أمره بنصف وبالثاني يتصدق به عن روحها ما دام حيًّا.

جلس عزيز يومًا يسترجع شريط ذكرياته. فمرت أمامه فترة استعداده للشهادة المتوسطة ونجاحه بها ما حرك طموحه للدراسة ثانية.

فشرع يخطط للمتابعة، وإذ به يسمع قرعًا على الباب. ولما فتحه كانت المفاجأة. أمه الحقيقية تقف أمامه. وتقول:

- كيف أنت يا ولدي عزيز؟

ذُهل عزيز، وتلعثم فلم يرد.

كررت الجملة ثانية، لكنه لم يستوعب المشهد. أبعد مضي أكثر من عقد من الزمن يرى أمه، والتي لم تسأل عنه منذ ذهابها مع زوجها مرة واحدة... هز رأسه، وتذكّر حثّ المولى على البر بالوالدين. فقال:

- تفضلي، أنا بخير.

لم يستطع نطق ماما. دخلت إلى غرفته. أخذت تبكي بحرقة. فبكى معها، وساحة تفكيره مملوءة بآيات وأحاديث تحث على البر بالوالدين. وقال:

- تعالي معي إلى غرفة أمي لتنامي فيها، وفي الصباح رباح.

دخلت الغرفة. وبقي عزيز معظم الليل يطرح أسئلة ويحاول أن يجيب عنها: ما التصرف الأنسب معها؟ ولم جاءت في هذا الوقت؟ هل تخطط لشيء ما؟ أهي زائرة أم مقيمة.

الأسئلة كثيرة، لكن النوم سرقه فنام حتى سمع صوت المؤذن يقول:

- حيّ على الفلاح. الصلاة خير من النوم.

نهض مسرعًا ليلبي النداء. سمع حركتها في الغرفة، فخشي أن تُحرج إن كلمها. تركها حتى جاءته صباحًا وشرعت تحدثه:

- ولدي عزيز، لك الحق أن تعتبرني أخطأت بحقك حين تركتك صغيرًا، وسلكت طريقًا مغايرًا لواجبات الأم تجاه صغيرها. لقد ظننته هو الأفضل لنا؛ لذلك تابعت المسير فيه لعلَّنا نجتمع، لكنني اكتشفت بعد سنوات أنني أسير خلف سراب خادع لا وجود له إلا في مخيلتي.

فرجعت إلى نفسي وقلت: أمن الحكمة أن أبقى أسير وراء سراب أم أتراجع وأقر بخطئي؟ سأكون صريحة معك يا ولدي، لقد لعبت في رأسي إحدى الجارات، وصورت لي غير الواقع. فقالت: اقبلي الزواج منه، ثم حاولي كسبه. ولن يرفض لك طلبًا من بعدُ. فتأتي بابنك لعيش معك... صدقت كلامها، ولم أر الحقيقة إلا متأخرة. فالرجل الذي تركت فلذة كبدي من أجله لا يفكر إلا بنفسه ولا يقدر مشاعري، فكلما أخبرته برغبتي أن آتي بك رفض بحدة وقال: نحن اتفقنا منذ البداية أن يعيش ابنك بعيدًا عنا. ولما تيقّنت من تمسكه بشرطه فكرت بالإنجاب فرفض. حملت، وأخفيت الحمل عنه فاكتشفه بعد فترة، حاولت الحفاظ عليه، لكنه أرغمني على إسقاطه. فغضبت وعدت إلى بيت خالك بالقرية. حاول إرجاعي إليه فاشترطت أن أنجب طفلاً على الأقل، إلا أنه رفض، فانفصلنا وبقيت في بيت أخي. ومنذ فترة شعرت أن معاملة زوجته تغيرت كليًّا، وضاقت بي ذرعًا، فبدأتْ تختلق المشكلات وتحيك المكائد، حتى تمكنت من إيغار صدر أخي. فطردني من البيت ليلاً... دارت بي الدنيا، وتساءلت: أين أذهب؟ فلم أجد أفضل من اللجوء إلى بيتك.

سكتت عن الحديث لتسمع رأي عزيز، لكنه بقي ينظر إليها غير مصدق رؤيتها تحدثه بعد هذه الفترة، فتابعت:

- ولدي، لقد تركتك مرغمة، وكلي أمل بأن فترة بعدك عني ستكون محدودة فحصل ما حصل. أتدري يا عزيز، أن أباك عند وفاته لم يترك لنا شيئًا، حتى الغرفة التي كنا نسكنها لم تكن ملكًا لنا فهي لعمك؟ لم يمض أكثر من أسبوعين على وفاته وقبل انتهاء عدتي بدأت أعمل كخادمة في بيوت القرية مقابل ما تجود به علي سيدات البيوت من طعام وغيره، كما بحثت عن عمل آخر حتى أغطي نفقاتنا فوجدت عملاً مضنيًا لم ترض به أي امرأة في القرية حيث عملت على نقل ماء الشرب من وسط القرية على رأسي إلى خزان المدرسة ليشرب التلاميذ

كل يوم، دوام بأجر زهيد. هذان العملان أخذا كل وقتي وطاقتي فبمجرد أن أعود إليك في الغرفة يسرقني النوم فلا أراك إلا لوقت قليل... هكذا استمررت فترة حتى جاءني رجل ظننت أنه سيخلصني من الشقاء لأعطيك حقك...

أجهشت باكية. فأشفق عليها، وقال:

- ربي أعلم بالنوايا. أرجو أن ترتاحي عندي.

مضت الأيام وعرفت أمه أنه يتصدق بنصف دخله عن أمه حاضنته، فحاولت أن تثنيه بقولها:

- ولدي، يقولون الحي أبقى من الميت فلم لا تجمع ما تتصدق به حتى تتزوج، فما زاد عن نفقاتك تصدق به؟

لم يرد عزيز عليها، لكنه خشي إن أصابه مكروه أن تتصرف بالأرض والبيت على هواها، فذهب إلى مختار القرية، وأبلغه بنيته أن يسجل قطعة الأرض بعد وفاته وقفًا للأيتام في القرية عن حاضنته أمه الثانية وأخفى فعله. وبقي يعاملها بإحسان.

سكت الأب عن الحديث. فنظرت إليه خلود، وقالت:

- بابا أكمل، لنعرف ماذا حصل لعزيز وأمه فيما بعد. فإياك تقول انتهت القصة.

ضحك الأب وقال:

- هنا توقف جدك، يرحمه الله.

نظرت خلود إلى أمها وقالت:

- يا أم الكل جاء دورك لتقصي علينا حكاية في مساء الخميس القادم.

ضحكت الأم من طلب خلود. وقالت:

- كم تحبين الحكايات! حبيبتي أشغلي نفسك بما يعود عليك نفعًا.

- أعدك ماما إن قصصت لي قصة ألا أطلب منك أخرى.

(١٩)

المظهر

حققت خلود خلال أعمال الفصل الدراسي نسبة ممتازة فاقت التسعين بالمئة، لكنها لم تلبِّ طموح والديها اللذين بدأا يشجعانها على المذاكرة ببذل جهد أكبر كي ترفع نسبتها في قابل الأيام. فكلما اقترب موعد امتحانات نهاية الفصل زاد حثهما، وتشجيعهما على المذاكرة، كما استغلت أمها الامتحانات فرصة لتأخير حكايتها، فقالت:

- حبيبتي خلود، أعرفك طموحة وتحبين التفوق. فالآن فرصتك لتحقيق ذلك، فلا تشغلي نفسك يا بنتي، إلا بالمذاكرة. وأعدك بمجرد أن تصدر نتائج نهاية الفصل، ويتحرك مجموعك للأعلى أن أقصَّ عليك حكايتي. فحكايتي لها نكهة مختلفة عما سمعته من قبل.

هذا الكلام كان مفاجئًا لخلود ولم يُرق لها. فتغيّرت ملامحها. وقالت:

- ماما، لماذا تشترطين الآن عليّ حتى تقصي حكايتك؟

- أحسنت السؤال يا بنتي، سبب اشتراطي عليك معرفتي قدراتك الفائقة التي تؤهلك للحصول على معدل أعلى في نهاية الفصل. فلم لا تستغلينها؟ ولتعلمي إن بقي جهدك كما هو فلن تحافظي على معدلك الحالي؛ لأن المطلوب في نهاية الفترة أكبر كما من الأعمال. فهل ترضين معدلاً أقل من الامتياز؟

- لا، ماما، أعدك بدء المذاكرة الجادة، لكن أرجوك المساعدة حتى أتجاوز هذه المرحلة.

- من عيوني يا بنتي، فسأعمل أنا وأبوك على تهيئة كل الفرص لك، فابدئي.

جلست خلود في غرفتها، تسترجع حديث أمها كلمة، كلمة. ثم تساءلت: كيف أرضي والديّ، وأرفع نسبة معدلي؟

فكرت... فلم تجد أفضل من البدء بالمذاكرة حالاً. فوضعت خطة يومية للمذاكرة تبدأ منذ عودتها من المدرسة إلى التاسعة ليلاً. وأن تستيقظ قبل نصف ساعة من موعدها الصباحي لتراجع ما درسته مساءً ليثبت بذاكرتها.

استمرت تذاكر هكذا حتى بدأت امتحانات نهاية الفصل. تقدمت إليها، وهي واثقة من نفسها، راغبة في إرضاء والديها. فلما صدرت النتائج كانت نسبة معدلها قريبة من ٩٥. فرحت كثيرًا وأفرحت، لكنها لم تنس وعد أمها فأسرعت إليها تقول:

- ماما، حان وقت وفائك بوعدك الذي انتظرتُه طويلاً.

نظرت إليها أمها باسمة، وقالت:

- من عيوني، لكن ألا تحبين أن يسمع أبوك حكايتي؟

- بلى، أحب بل أسعد كثيرًا بحضوره... إذًا حددي لي وقت الحكاية حتى أبلغه.

- تعالي نستعرض معًا أيام الأسبوع علَّنا نختار يومًا مناسبًا.

وبعد تداول أيام الأسبوع اتفقتا على مساء الخميس ليلة الجمعة؛ لأن يليه عطلة.

أبلغت خلود أباها، ضحك وقال:

- على بركة الله، أخيرًا وافقت أمك على أن تقص علينا. فلنسمع حكايتها مساء الخميس.

بدأت أم خلود تبحث عن حدث ينال إعجاب ابنتها وزوجها. سرحت تتذكر شريط حياتها فاستوقفها حدث جرى في صباها، وأثَّر في حياتها...

فأسرعت تبحث عن دفتر تحتفظ به أودعته بعض يومياتها... طالعت يومياتها وهي تخشى ألا تجده؛ لأنه جرى قبل أن تبدأ كتابة المذكرات. ولما وجدته تنفست الصعداء؛ فالحدث يصعب عليها نسيانه، فقد أثَّر في حياة أسرتها، وهو الوحيد الذي كتبته لخصوصيته... قرأته سريعًا فأعجبها.

كانت خلود تنتظر ليلة الجمعة بفارغ الصبر. فعندما عاد أبوها من عمله عصر الخميس تناول الطعام ثم أخذ قسطًا من الراحة بعد صلاة المغرب. ثم جلس وراء مكتبه يضع خطة عمله للأسبوع القادم.. ولمَّا أنهى عمله دخل الصالة، ثم لحقت به خلود مسرعة وجلسا ينتظران القاصة الجديدة لهذه الليلة.

جاءت الأم تحمل دفترًا أثار استغرابه وتساؤلاته، فقال:
- أم خلود نريد حكاية تحفظينها لا تقرئينها.

همست في أذنه:
- من أحداث الحكاية ما يتعلق بزواجنا.

تغيّرت حاله، ورحَّب. فقرأت كوثر:

عاد أبي مساء يوم وافق ١٩٧٢/٨/٨ من عمله على غير عادته متجهم الوجه. سلَّم من طرف لسانه، ودخل إلى غرفته. ولما طال غيابه نادته أمي، فلم يرد. انتظرت، لعله يخرج، لكنه لم يخرج... فذهبت إليه. قرعت الباب، ثم دخلت فوجدته مستلقيًا على السرير بملابسه. استغربت تصرفه، فسألته:
- أبا كوثر، ليس من عادتك السلام بهذه الطريقة، ولا التجهم، ولا حتى البقاء بملابسك... ما الذي حدث؟

تنهد متألمًا، ثم قعد، فقال:
- أيصح بعد خدمتي الطويلة أن أُنقل هذه الأيام إلى ناحية في جبل الحرمون من دون سبب؟ لم أتوقع أن تكون مكافأتي هذا التعسف...

ألا يكفي أنني خدمت في النواحي قرابة العقدين، ألا يحق لي أن أستقر لأرتاح من التنقل بين المحافظات؟

- بالله الجليل يحق لك، لكن ماذا ستفعل؟

- لا أدري، تفكيري شُلّ، وكياني انقلب، حتى الدنيا باتساعها ضاقت بعيني. والله هذا ظلم، بل الظلم بعينه.

فسمعتُ ماما تقول:

- بالله عليك تعوّذ بالله من الشيطان. وتعال نأكل، فالأود ينتظرونك. وفي الغد قدِّم تظلمًا يشرح ظروفنا الاجتماعية، فأولادنا في المدارس. نقلهم يؤثر في تحصيلهم العلمي، واستئجارنا لبيت هناك لا يتحمله دخلنا؛ جراء التزامنا بأقساط شقتنا... وذكّرهم بالضباط الجدد الذين عيّنوا في القسم حديثًا، فمنهم غير المتزوج لو نُقل فالنقل عليه أخف وطأة منك.

- ربي ينّور عليك يا أم كوثر، فتّحت أمامي غير مسلك. عسى ولعل أحدها ينفع.

- قُم الآن يا رجل، غيّر ملابسك حتى نتناول الطعام، وستفرج بإذن الله:

مابين غمضة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال.

نهض أبي متثاقلاً. بدّل ملابسه ثم تناول الطعام إرضاءً لنا؛ فقد بقي مشغولاً بالمفاجأة التي ستغير حياتنا إن لم يُلغ قرار نقله.

في اليوم التالي قدَّم أبي تظلمًا إلى رئيس القسم، ثم أخلى طرفه من العمل في القسم، وودّع زملاءه مهمومًا مغمومًا سارح الفكر. وفي الصباح ودَّعنا قاصدًا مقر عمله الجديد، ليبدأ حياة مختلفة، حيث قضى أيامها الأولى يقيم في مقر الناحية منتظرًا أن يُنصف، لكن هيهات هيهات.

وبمجرد أن بدأ العام الدراسي قطع الأمل. فاستأجر بيتًا في بلدة الناحية، ونقلنا إليه، ونقل مدارسنا. كنت وقتها ناجحة إلى الصف السادس.

في صبيحة اليوم الرابع من وصولنا إلى الناحية أخذني بابا بسيارة الناحية إلى مدرسة الإناث الابتدائية النموذجية. كانت مبنية على سفح جبل، وبابها الرئيس يطل على سهل منبسط مد البصر، بعيدة بعض الشيء عن منازل البلدة. فشعرت للوهلة الأولى بالرهبة والوحشة. وتذكرت مدارس المدينة التي تسوّرها العمارات من كل جانب وقلت في نفسي: (أيمكنك يا كوثر أن تعودي إلى البيت وحيدة في هذا الطريق الموحش؟) فزدتُ فزعًا وقلقًا.

سِرتُ وراء أبي كمن يقدم رِجلاً ويؤخِّر أخرى، حتى ناداني:

- أسرعي.

دخل بي إلى غرفة المديرة. عرّفها نفسه. فرحبت به، وأخذت الملف وكتبت ورقة أعطتها للمستخدمة، ثم طلبت منها أن تأخذني إلى فصل الصف السادس. سِرت وراءها أحمل هموم الدنيا على عاتقي... قرعت المستخدمة باب الفصل، وقالت للمعلمة:

- آنسة، تلميذة جديدة من العاصمة.

رحَّبت بي المعلمة، وطلبت مني الجلوس في المكان الفارغ بآخر الفصل. قضيت ذاك اليوم مشتتة جسدي في المدرسة، وعقلي سارح. أنتظر انتهاء الدوام وعودة أبي ليأخذني إلى البيت، لكنني أذكر أن إحدى التلميذات جاءتني مبتسمة، وقالت:

- مرحبا بابنة عاصمتنا، ما اسمك؟

بعد قولها ابنة العاصمة.. تلكأت بالإجابة، ثم قلت:

- أختك كوثر السمان.

يبدو كلمة "أختك" أراحتها، وبددت جُزءًا مما تشعر به تجاه سكان المدن. فقالت:

- أختك سعاد الجابر.

منذ سمعت منها "أختك سعاد" انطلق لساني، فتبادلنا الحديث. حدثتني عن المدرسة والحياة في البلدة، فوقع حبها في قلبي. ولما جاءت المعلمة استأذنتها حتى تجلس إلى جانبي. وصرنا صديقتين. ثم توطدت صداقتنا أكثر، فكلتانا متفوقة، وصرنا نتزاور في البيت، كما عرفتني بزميلاتها المقربات فكنا نتنافس علميًا حتى أحبتنا معلمة الفصل وأشركتنا في أنشطة المدرسة كالمكتبة والإذاعة والنشاط الثقافي.

مضت الأيام سريعًا، وتغيّرت معها نظرتي للمنطقة. وبخاصة عندما هجم الربيع عليها، ومسح عليها بيديه مغيّرًا شكلها كليًّا. فإذا حضرت إلى المدرسة استهواني منظر المزروعات المختلفة التي تعمر السهل الممتد مد البصر أمامها. إضافة إلى أشجار السرو التي تحيط بالمبنى المدرسي شامخة نحو الأفق مزهوة بارتفاعها وجمالها؛ لذلك تراها كلما هبت نسمة هواء تتراقص كأنها تتجاوب مع شجيرات حديقة المدرسة، إضافة للمزروعات المختلفة من الخضراوات. والأمر الحسن العملي أن إدارة المدرسة أعطت من ترغب من طالبات الصفين الخامس والسادس قطعة أرض صغيرة ليزرعنها ويأخذن نتاجها لبيوت أهلهن.

هذا الجمال الطبيعي نمّى في نفسي ما كنت أفتقده في المدينة تجاه المكان الذي أعيش فيه، حتى عشقته من قلبي بعدما كنت أنفر من وحشته سابقًا. كم تمنيت أن يكون بيتنا قريبًا من المدرسة لأمتع عيني بما حوى من أشجار وخضراوات وأزهار وورد. كم سلب لُبي تمايل النبات ذات السوق المرتفعة يمينًا وشمالاً، فكأنها في تمايلها يحتضن بعضها بعضا، وبمجرد أن تنفك، ويقوى الهواء، تزيد حركتها علوًا وانخفاضًا، حتى تكاد تقبّل ما على الأرض من مزروعات أخرى والتي لم تقصر في نهوضي ملبية دعوتها.

لم يقتصر حُب المكان علي، بل وصل أسرتي التي عشقته لجماله، ولدماثة خلق أهله، وكرمهم. فأحيانًا يجول بنا أبي في المنطقة ليطلعنا

على معالمها، فنفاجأ بأحد الفلاحين يقطع علينا الطريق ليضع بالسيارة جُزءًا مما تنتجه أرضه.

ذات مساء يوم شتوي تكاثفت الغيوم السوداء التي لم أر مثلها من قبل، فحجبت كل ضوء، وبدأ المطر يهطل بغزارة. فإذا توقف فترة عاد ثانيةً، وهكذا، حتى شكّل سيولاً زحفت من الجبل والهضاب إلى السهل ووصلت إلى القرى المنخفضة فأغرقتها وشردت أهلها، فجاء إلى بلدة الناحية عدد كبير من العائلات. عمل أبي مع وجهاء البلدة على إيوائهم، لكنهم بعد ذهاب العاصفة لم يرجعوا إلى قراهم خوفًا من تكرارها، فجاءت عشر تلميذات إلى فصلنا من مدارس القرى المغمورة ماء، فلم تستوعب غرفة الفصل عددنا الجديد، فاضطرت المديرة إلى نقلنا إلى غرفة أكبر في الدور الثالث، وغيّرت معلمتنا ؛ لأنها لا تستطيع صعود السلالم. فجاءتنا معلمة من المدارس المغلقة بسبب العاصفة ما أثّر فينا. فاتفقنا نحن- الفائقات- أن نقف من المعلمة موقفًا سلبيًا، فلا نشارك في الحوار لعلها تغادرنا.

مضى الأسبوع الأول، ثم الثاني، استطاعت خلالهما استيعابنا، بل تجاهلت موقفنا السلبي فكانت توجّه إلينا الأسئلة كبقية التلميذات، وتثني على إجاباتنا الصحيحة، وتتصرف بحكمة وأناة وثقة بالنفس مُظهرة كفاءة غيّرت نظرتنا. فنشأت بيننا وبينها صداقة إلى درجة التزاور لقربها من سننا، وغدت تؤثر فينا فنسمع كلمتها. فهي من أرشدتنا إلى كتابة يومياتنا، كما شجعتنا على تنمية مواهبنا، حتى إنها خصصت لنا وقتًا خارج الدوام نأتي إلى المدرسة حتى تقوّم أعمالنا، فهي من أكثر المعلمات تأثيرًا في رحلتي التعليمية منذ الابتدائي حتى الجامعي، وما زلت أتواصل معها حتى أيامنا... فلعك عرفتها!

أغلقت أم خلود دفترها وقالت:

- هل عرفتها يا أبا خلود؟

نظر الرجل، مستغربًا، ولم يجب. أما خلود فقالت لأمها:

- يبدو أن حكايتك لم تنته بعد، لكنني أود أن أبدأ كتابة يومياتي ليكون لي دفتر مثلك حتى أرجع إليه وقت الحاجة يا ماما.

ضحكت كوثر. فقال أبو خلود:

حكايتك يا كوثر وفق تصنيف النقاد تعد من التراجم والسِّير، فهي تغطي فترة من حياتك، لكنها تبقى رائعة بروعة خلود.

- شكرًا، شكرًا كثيرًا يا بابا.

نظرت أم خلود إليه بطرف عينها، وقالت:

- سامحك الله، أعجزت روعتك عن أن تشملني؟

- لا، يا ابنة الحلال، فأنت تعرفين البئر و غطاءه.

ثم وكز بشفته العليا على السفلى، كأنه يقول: المقام لا يناسب هذا فأنت تعرفين حقيقة مشاعري تجاهك...

ثم استدرك:

- ممكن تذكيري بالمعلمة التي كانت سبب معرفتي بك، وكيف تم ذلك؟

- لا، لا، يا أبا خلود، أتنسى أهم موقف سبب جمع شملنا؟ عليك أن تتوصل إليها بنفسك.

اعتبر مازن هذا تحديًّا، لذلك بدأ يفكر، ويستعرض الأيام التي مرَّت قبل زواجهما لعله يصل إلى معرفة من تكون المعلمة، وعلاقتها بزوجته... لم يكن لديه فائض من الوقت ليضيّعه متذكرًا المعلمة. فسألها إن كانت تعرف اسمها، أو تذكر لها ملمحًا فارقًا يميّزها من غيرها؟ سألته:

- ألم تكن خالتك وقتذاك معلمة في مدرستنا؟

- لا أخت لأمي شقيقة، فهي وحيدة.

- أبا خلود، عجيب، تذكّر جيدًا فمعلمتي قالت لي:

- من أخبر أمك بمغادرتي إلى دمشق في زيارتي الأخيرة خالتك المعلمة صديقة معلمتي.

- ربما تقصدين المعلمة شيماء التي ذهبت مع ماما إلى منزلكم لطلب يدك من أبيك؟

- هي بعينها يا سيدي.

- سيدتي، أعرفها من بعيد لأنها تقرب ماما من بعيد، فهي قلما كانت تزورنا، لكنني -حقًا- أناديها خالتي عندما تزورنا ليس إلا... ألها دور بمعرفتي بك؟

- عليك نور يا زوجي العزيز، ما أذكره أن بابا خدم في الناحية- أي بلدتكم- خمس سنوات تقريبًا، ثم أحيل على المعاش، ولما جئت بلدتكم كنت في سن الثانية عشرة. فمعلمتي في الصف السادس كانت في بداية العشرينات. أي أن فارق السن بيننا غير كبير، ما دفعني إلى نسج علاقة صداقة معها، فغدونا نتزاور، واستمررت أزورها بعد انتقالنا إلى دمشق في بلدتكم؛ لأنها تزوجت من أحد معلمي البلدة... ذات يوم جئت لزيارتها، فوجدت عندها معلمة كنت لمحتها في المدرسة من قبل، وعرفت أنها من أهل بلدتكم، حيث دار بيننا حديث عن الماضي.. فيبدو بعد مغادرتي إلى دمشق سألت معلمتي- زميلتها- عن رأيها فيّ؟ فربما جاء جواب معلمتي مناسبًا لما تسأل عنه؛ لذلك قالت لها: أتمنى أن يراها ابن أختي المهندس مازن فهو يبحث عن عروس علهما يتوافقان.

بعد أدائي لامتحان الثانوية العامة أحببت أن أخفف عن نفسي فطلبت من ماما السماح بزيارة معلمتي في بلدتكم... جئت لزيارتها في اليوم التالي مبكرة، وبقيت حتى ساعة متأخرة من النهار. فأظن أنها أخبرت خالتك بأنني متوجهة إلى موقف الحافلة فإن أحب ابن أختك رؤيتي

فليذهب إلى الموقف... ما أذكره أنني رأيتك ثم صعدت إلى الحافلة التي أقلتني إلى دمشق، فلمحتك تنظر إلي، فلم أهتم لأنني لم أفكر بذلك بعد، ولم تحدثني معلمتي بما جرى بينها وبين زميلتها... نزلت من الحافة متوجهة إلى البيت ولا أعلم أنك تراقبني...

كان مازن يسمع، ويهز رأسه فقد تذكّر الحدث الذي أثار شجونه فقال:

- لما وصلنا دمشق نزلت، وسرت باتجاه شارع يوصل إلى منطقة الإطفائية، فسرت وراءك من دون أن تشعري، ولما دخلت العمارَّة وركبت المصعد، شاهدته توقف في الدور الرابع. طلبت المصعد، وصعدت فوجدت اسم أبيك مكتوبًا على باب الشقة، ثم قفلت راجعًا... أخبرت والدتي بما جرى وبأنني أرغب في أن تذهب إلى بيتكم لطلبك من أبيك... من فورها تواصلت ماما مع قريبتها المعلمة لتذهبا معًا إلى بيت معلمتك وهناك اتفقن أن يذهبن إلى بيتكم... طلبت أمي مرافقتهن لكنني رفضت لانشغالي بالعمل وأعطيتها العنوان... ذهبن إلى بيتكم ولما رجعن قصت علي أمي ما حصل معهن فقالت:

- لما نزلنا من الحافلة أوقفنا سيارة أجرة وأعطيناه العنوان، فأوصلنا إلى أمام العمارَّة، نزلنا وصعدنا المصعد إلى الدور الرابع، ثم توجهنا إلى الشقة المكتوب على بابها "العقيد على أحمد السمان" قرعت الباب... فأطل علينا رجل أزعم أنني لمحته في بلدتنا مرات فقلت: سيادة مدير ناحيتنا.. تفاجأ وقال: (أهلاً وسهلاً)، فلمح معلمة كوثر، رفع حاجبيه وقال: (معلمة كوثر يا مرحبا، تفضلن)...فتح لنا باب غرفة الاستقبال وهو يرحب بنا ثم استأذن حتى ينادي زوجته أم كوثر التي جاءت مسرعة، وبدورها رحبت بنا لأنها تعرف معلمة كوثر، وأكثرت من قول: (أهلاً وسهلاً بضيفاتنا)... وتوجهت إلى معلمة كوثر تعاتبها على عدم زيارتهم في دمشق. فردت معلمة كوثر: (ها نحن في ضيافتكم

وقد جئت لكم بأم المهندس مازن وخالته زميلتي في المدرسة).

استمر الحوار بالمجاملات والترحاب، وذكرت المرأة أهل البلدة فأثنت على كرمهم قائلة:

- زوجي خدم في الأرياف وكنت أرافقه فلم نجد راحة فيها كبلدتكم ولا كرمًا أيضًا ككرمكم، حتى الأولاد أحبوا البلدة وأهلها.

استغلت معلمة كوثر مدحها لأهل البلدة:

- خالتي أم كوثر، أختي أم مازن ولدها مهندس يعمل في دمشق يبدو أنه شاهد حبيبتي وصديقتي كوثر في زيارتها الأخيرة لي فهو يود أن تقبلوه ابنًا لكم.

كان الطلب من المعلمة مفاجئًا أدهش المرأة؛ لأن ذهنها خال من مثل هذه الأمور، فتلكأت قليلاً، ثم قالت:

- يا للفرحة! أن يكون لنا ولد شاب إلى جانب البنات، لكن الأمر يرجع إلى رأي البنت وأبيها فأرجوكن إعطائي فرصة حتى أسأل أباها، وأبلغكن الخبر.

- توكلنا على الله، يا أم كوثر نحن نود خبرًا منك عن طريق أستاذتنا.

- حاضر.

لم يمضِ سوى أسبوع وإلا بأختي المعلمة تخبرني بأن أم كوثر أبلغت زميلتها المعلمة بأن أبا البنت طلب الاجتماع مع الشاب.

تدخلت خلود قائلة:

- نقطة نظام.. الموضوع بابا وماما، ولله الحمد انتهى بالموافقة وتزوجتما ورزقتما بنية تحب الحكايا فهي ستبدأ بالكتابة حتى تشارككما مستقبلاً بقصصها، مادامت القراءة من الدفتر مسموح بها.

ضحك الأبوان وقالا معًا:

- كم أنت يا خلود تحبين القصص!

(٢٠)

أيـعـقـل؟

من البدهي أن يتعلم الصغير بعض شؤون الحياة الاجتماعية الضرورية في حياته، إضافة إلى فن التعامل مع الآخرين ممن هم أكبر منه سِنًّا؛ فقد قضت سُنة الحياة أن يكون الأكبر ذا خبرة بتلك الشؤون، خاصةً إذا عايش تجارب حياتية مؤثرة، تستوجب أن تُنقل لمن هم أصغر منه سِنًّا؛ فطالما سمعنا بعض الألسنة تردد القول القديم الحديث: (الأكبر منك بيوم أخبر منك بسنة).

وقفت أمام القول أتأمله، فلمحت فيه تضخيمًا للكم المعرفي بشؤون الحياة الاجتماعية لدى الأكبر سِنًا، قياسًا بالكم المعرفي للأصغر منه سِنًا، واضعًا نصب عيني هدف القول المتمثل بدعوة صغار السن إلى الاستفادة من تجارب الأكبر سِنًا، مستبعدًا في الوقت ذاته أن يكون القول شاملاً لكل كبار السن، فكثير منهم تجاربهم محدودة، وغير مؤثرة في الآخرين. فكيف بمن لا تجربة له أصلاً؟

مع العلم أن ميدان الحياة منح الكثير منا غير فرصة ليدلي بدلوه، ويعرض تجاربه أمام غيره من دون أن يحدد سنًا معينًا. فإذا كانت التجربة مفيدة، ومؤثرة في الآخرين عُمل بها سواء أكان صاحبها كبيرًا أم صغيرًا.

الصبي مسعود بالعاشرة من العمر. خالف القول القديم الحديث، عندما اقترح على جده الأكبر منه سِنًا أن يجري بعض التعديلات في دكانه ليكسب عددا أكبر من الزبائن. فلما نجح اقتراح مسعود، وأظهر الدكان بعد التعديل أجمل من ذي قبل، كثر روادها، فأقر الجد بملء

فيه وعلى الملأ بجدوى وجهة نظر مسعود الذي يحدثنا بنفسه عما جرى بينه وبين جده...

(تعوّدت منذ صغري أن أملأ الوقت الفراغ بالعمل المفيد. فبعد أن أعود من المدرسة، أنهي واجباتي المدرسية، وأحفظ دروسي، ثم أذهب إلى دكان جدي في الحي حتى أساعده على خدمة الزبائن، وتنظيف ما علق على البضاعة من أتربة. وفي أيام الإجازات أذهب بعد الظهر، حاملاً إليه الطعام وأتناوله معه...

ترددي شبه اليومي على الدكان ولّد بيني وبين جدي علاقة طيبة أنتجت حُبًّا لا نظير له، كما أكسبني معرفة معظم معروضات الدكان، وأسعارها، وأسرار بيعها وشرائها...

ذات يوم جاء إلى دكان جدي مسوّق بضاعة. يعرض عليه نوعًا جديدًا لم ينزل إلى الأسواق من قبل من إنتاج الشركة التي يعمل فيها. فدار بين المسوق وجدي حوار طويل تناول طبيعة المنتج، وصلاحيته، وسعره وغير ذلك... أسفر أخيرًا عن إقناع جدي بالمنتج، والذي طلب من المسوق أن ينزل منه مبدئيًا كمية محدودة ليجرب بيعه وحركته، على أن يمر بعد أسبوع ليحاسب على المباع منه، ثم يُنزّل كمية تتناسب وطلب الزبائن... سلّم المسوّق الكمية من المنتج لجدي، وغادر.

أخذ جدي يطالع أرفف الدكان، فلمح رفًّا شبه خال. طلب مني أن أساعده على نقل ما عليه من بضاعة ليعرض المنتج الجديد مكانها.

وقفت أمام الرفّ متأملاً، فوجدته لا يصلح لعرض منتج جديد ينزل إلى الأسواق للمرة الأولى، فالأنسب لهذا المنتج أن يُعرض على رف من أرفف الواجهة حتى يراه كل من يقصد الدكان.

جلت بنظري سريعًا على أرفف الواجهة، واخترت رفًّا بعينه. ثم توجهت إلى جدي محاولاً إقناعه بوجهة نظري:

- جدي الغالي، انظر إلى هذا الرف الأمامي في الواجهة - وأشر ت إليه بسبابتي- إنه مكشوف ويرى ما عليه كل من يقصد الدكان من زبائن. أمّا الرف الآخر فهو داخلي لا يرى ما عليه إلا مَن يتسوق من داخل الدكان. فإذا أردنا تسويق المنتج الجديد حقاً، وترغيب الزبائن في شرائه فلنعرضه في مكان مكشوف للجميع. فما رأيك أن نصفّه على الرف الأمامي بالواجهة، وننقل معروضات الرف إلى الرف الداخلي؟

نظر جدي إلى وجهي نظرة ممتدة توحي بالإعجاب، ثم طالعني من رأسي حتى قدمي:

- الله، الله على رأيك يا مسعود، إنه أفضل من رأيي، ونظرتك في مكانها! فجدك أمضى عمرًا يبيع في الدكان، ولم يخطر بباله مثل فكرتك بأن البضاعة الجديدة يجب أن تعرض في الواجهة. كم من بضاعة جديدة جاءتني، كنتُ أعرضها على الرف الذي خفت بضاعته أحسنت يا بطل.

لمحت على ثغره بسمة توحي بالرضا والاستبشار أوصلت إشارته بقبول عرضي فسألته:

- ما الرف الذي حركة بيع بضاعته بطيئة في الواجهة؟

أشار إلى أحد الأرفف. فبدأت وعامل الدكان ننقل بضاعته إلى الرف الداخلي. ووضعنا مكانها المنتج. فلما فرغنا من ترتيب الكمية بشكل مُغرٍ يلفت النظر... تنهّد جدي بعمق، وزاد إعجابه بعملي. فأحببت أن أُسعده أكثر، فاستأذنته لأرتب له بقية أرفف الدكان، مستغلاً ما بقي من أيام العطلة الصيفية. فلم يمانع، بل قال:

- ولدي مسعود، كم يسعدني حضورك، ويسرني أُنسك، فلا أود إرهاقك بعمل الدكان.

- جدي الغالي، تأكّد أن سعادتي بسعادتك، وستزيد سعادتي أكثر إن

سمحت لي أن أرتّب أرفف الدكان وفق تصوري لأخرجها بحلة جديدة. فإذا نظر الزبائن إلى معروضات الأرفف بشكل جديد لم يألفوه من قبل ترتاح أعينهم لمنظره، ويشعرون بالسعادة التي تدفعهم ليكرروا الزيارة.

نظر الجد إلى مسعود مندهشًا، وراح يقلّب الفكرة، لكن مسعود قطع عليه تفكيره:

- جدي، إن قبلت خطتي في ترتيب الأرفف فاسمح لي أن أبدأ بالجزء الداخلي أولاً. فإن نال ترتيبي رضاك استمررت فيه، وإلا توقفت، وأعدت البضاعة إلى سابق عهدها. وفي الوقت نفسه أتأكد من تاريخ صلاحية المعرضات... بالمناسبة ماذا تفعل بالبضاعة التي اقتربت نهاية صلاحيتها؟

- أبقيها معروضة حتى بداية الشهر الأخير من صلاحيتها. فإن كانت برسم البيع أتواصل مع المورد ليرفعها، وإن كانت مدفوعة الثمن أتخلص منها بعد نهاية الشهر.

- يعني تخسر قيمتها...

- أفي جعبتك يا بطل، حل يجنبني خسارتها؟

- سأفكر بحل مناسب بعد حصر أعدادها لعله يجنبك خسارتها... لكنك لم تبد رأيك في خطتي بإعادة ترتيب المعروضات على الأرفف من جديد؟

ولدي، إذا كنت مُصرًّا، فعلى بركة الله. دعني يا بطل أنظر إلى إبداعاتك على الواقع.

- شكرًا جزيلاً يا أحسن جد، قيل (خير البر عاجله) سأبدأ عملي - بإذن الله- صباحًا. أرجوك أن توصي العامل بالمجيء مبكرًا.

إن موافقة جدي على ترتيبي للمعروضات وفق خطتي بعثت فيّ

سعادة لم أشعر بها من قبل. كما حفزتني على البحث عن حل مناسب للمعروضات الراكدة، والقريبة من انتهاء صلاحيتها. فبمجرد أن وصلت إلى المنزل جلست وحيدًا، أخذتُ قلمًا ورقة، وشرعت أرسم خطواتي في ترتيب المعروضات على الأرفف، ولما أنهيت تثبيت الخطة تنفست الصعداء، وبدأت أفكر بحل لتصريف المعروضات الراكدة، وذات الصلاحية المحدودة، فتفتق ذهني عن فكرة اقترحتها على جدي بأنني بعد حصر أعدادها، ومحتواها، فالراكد منها نعرضها على الزبائن بإصدار إعلان مفاده: (من يشتر حبتين منها يأخذ الثالثة مجانًا). أما المعروضات التي لم يبق على صلاحيتها سوى شهر فنعرضها تحت عنوان: (من يشتر حبة يأخذ أخرى مجانًا).

نِمتُ تلك الليلة هانئًا؛ لأنني توصلت إلى حل مناسب قد يرضي جدي.

في صباح اليوم التالي ذهبت بصحبة جدي إلى الدكان. ولم أفصح له عن خطتي في تصريف الرواكد، ومثيلاتها منتظرًا حصرها. فوجدنا العامل قد فتح الدكان، وبدأ ينظفها، ولما انتهى أشرت إليه أن يأتي معي. دخلنا إلى الجزء الداخلي. بدأنا نرفع المعروضات ننظفها، ونمسح ما علق عليها، ثم نعيد ترتيبها، كما كنا نسجل في قوائم تواريخ صلاحيتها.

استمر عملنا يومين كاملين في التنظيف، والترتيب، والتغيير حسب حركة مبيعات المعروض، ولما استكملنا عملنا نظرت إلى الأرفف فعكست لي صورة مغايرة تمامًا. فدعوت جدي لرؤيتها. فبمجرد أن نظر إليها صاح بصوت مرتفع من الفرح:

- يعمر بيتك يا ولدي، كم أنت صاحب ذوق ورأي وهمة ! لقد صدق ظني فيك بأن عقلك أكبر من سنك. فلو لم أكن معك في الدكان لظننت الدكان جديدة.

حمدت ربي أن وفقني في كسب رضا جدي الذي أغراه المنظر الجديد. فقال:

- متى سترتّب بقية الأرفف يا بطل؟

- بإذن الله في صباح الغد. فما رأيك؟

- على بركة الله يا ولدي، لقد أحسنت صنعًا بإحداثك هذا التغيير في المعروضات؛ لذلك أتوقع بعد انتهائك من بقية الأرفف أن يحصل حركة أسرع للمعروضات.

- هذا ما أستهدفه من تغيير عرض البضاعة، إضافة إلى إشعار الزبائن بالراحة النفسية حتى نكسب ثقتهم. فالثقة بين البائع والمشتري أساس البيع. فمن يدري قد يجلبون للدكان زبائن جدد.

تابع مسعود في الأيام اللاحقة ترتيب الأرفف، آملاً أن تتحقق أهدافه، ويكسب مزيدًا من ثقة جده الذي ترك له حرية التصرف في عرض البضاعة كما يشاء...

لذلك لا علاقة للسن بنجاح الخطط.

.

شمس للنشر والإعلام
ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)
www.shams-group.net